القسم الأول

الجذور العميقة

كل إنسان وصل إلى المكان الذي هو فيه

عليه أن يبدأ في المكان الذي كان فيه

- روبرت لويس ستيفنسون

الفصل الأول

بذر البذور

واينوود، أوكلاهوما

حزيران/ يونيو 1950

بدأ فهمي للعالم ونتائج هذا الفهم، عن الصواب والخطأ، والخير والشر، عندما كنت في الخامسة من عمري في أوكلاهوما الوسطى. وقد يكون ذلك صعب التصديق، ولكنه هو الصدق.

كان والدي، ري فرانكس، هو الذي علمني تلك الدروس. قال لي أبي: "يا تومي ري، اسحب إلى الأعلى بالقوة نفسها تماماً التي تدفع بها إلى الأسفل." كان يشذب لوحَي خشب بقياس اثنين في أربعة لسقف حظيرتنا بمنشار يدوي على الباب الخلفي لشاحنة فورد القديمة. واشتبك نصل المنشار نازلاً عبر اللوح وشقه بصوت أخف. وانتفخت يده اليمنى، التي تلونت باللون البني. مثل الجلد تحت الكم القصير لقميصٍ تغير لونه، وهو يحنى جسمه الثقيل المربوع الممتلئ باتجاه المنشار.

كان الفصل صيفاً، وجميلاً في ظلال أشجار الحور الأمريكي قرب الحظيرة. وكنت حافي القدمين، ألبس صدرية على لباس عمل بدأ البنطلون فيه يقصر عن الساقين، وكنت أجلس في التراب الوسخ، أراقب والدي وهو يعمل، وأنصت بانتباه، كما هو الحال دائماً، لكلماته التي يتلفظ بها برفق. كان يبتسم كثيراً، ويحب أن يمزح مع من حوله. ولكن أبي، عندما كنا نبقى وحيدين معاً، كان كثيراً ما يغتنم اللحظة ليشرح لي الأشياء التي تعلمها في حياته.

قال لي أبي، وهو يقذف إلي بقطعتين من شظايا الخشب: "هاك، يا تومي ري، تستطيع أن تلعب بهذه القطع."

"ولكنها، يا أبي، ليست لعباً حقيقية." قلت ذلك بلهجة عامية.

صحح لي اللهجة العامية، ونطق الجملة بالشكل الصحيح، وهو ينقف لي بظفره قطعة أخرى من لوح الخشب. ويقول: "ولكنها حقيقية، ألا ترى؟ قبل سنوات قليلة، كان يتعين على الصغار أن يقنعوا بألعاب صنعها لهم آباؤهم. ما كانوا يستطيعون أن يقوموا بمجرد قيادة سياراتهم إلى متجر لبيع السلع الخفيفة بخمسة سنتات في المدينة ويشتروا ألعاباً جاهزة الصنع."

لمست الخشب بأصابعي، وما يزال ساخناً من نصل المنشار. وقلت: "شيء عجيب! كيف حدث مثل ذلك؟"

مسح وجهه بمنديل، ومدد لوحاً خشبياً آخر على عرض الباب الخلفي للسيارة، ووضع المنشار على خط مستقيم. وقال: "حسناً، يا تومي ري، كانت عندنا حرب. ومعظم البلدان في العالم كانت تقاتل. وكان يتعين على أمريكا أن تقاتل الألمان واليابانيين. ملايين وملايين من الرجال الذين كانوا في عمري وأصغر مني كانوا جنوداً وبحارة وطيارين وكان يتعين عليهم أن يذهبوا للقتال."

وفكرت، القتال! كان ذلك مثل ما تفعل الدجاجات في ساحة حظيرتنا عندما تتمرغ وهي تدرج وتقاقي، أو مثل ما يفعل الأولاد الكبار وهم يمشون إلى المدرسة في الشتاء عندما يرمي بعضهم بعضاً بكرات الثلج. ولكن ما الذي يجعل ملايين الجنود والبحارة يتقاتلون؟

"عجيب! كيف حدث مثل ذلك، يا أبي؟"

"الناس الأشرار، يا تومي ري، اليابانيون هاجمونا في مكان يدعى بيرل هاربر. واستمرت الحرب لسنوات، وكثيرون من أبنائنا لم يعودوا للوطن."

"إلى أين ذهبوا؟"

وضع والدي المنشار وابتسم ابتسامته اللطيفة العريضة التي كانت له عندما كان يحتاج إلى أن يشرح شيئاً محزناً، مثل ما فعل عندما أصيب القط جنجر بضربة

من الشاحنة، وقال: "إيه. أولئك الشباب قتلوا. لقد ماتوا من أجل أمريكا، يا تومي ري."

قالت أمي إن الناس يذهبون إلى السماء عندما يموتون. وأولئك الشباب ذهبوا ليقاتلوا واستمروا ذاهبين تماماً حتى وصلوا إلى السماء.

"وهل ذهبت للقتال، يا أبي؟"

"كنت في القوات الجوية للجيش، يا تومي ري. كنت أصلح الطائرات للشباب ليطيروا بها. لم يكن يتعين علي أن أطير، ولكني أعتقد أن عملي كان مهماً."

في مخيلتي، كنت أستطيع أن أرى والدي وهو يصلح الطائرات ذات المراوح المتلألئة. كان يستطيع أن يصلح كل شيء، السخان الكهربائي للماء للحمام، والشاحنة، والجرّار، وكل المحاريث المختلفة والحاصدات. كان الناس دائماً يحضرون أدواتهم المتعطلة إلى المزرعة ليقوم ري فرانكس بإصلاحها. قالت لي أمي إن أبي لم يكن يستطيع أن يقول لا إذا احتاج الناس إلى مساعدته.

"وهل ذهبت إلى بيرل هاربر؟"

وهز أبي رأسه مبتسماً. "لا، يا تومي ري، ذهبت إلى مكان يدعى منطقة قناة بنما. لديهم أشجار نخيل هناك، وطيور جميلة حقاً تسمى الببغاوات."

"لم يكن على أمي أن تقاتل، أليس كذلك؟"

"السيدات مكثن في البيوت وعملن بجدية فعلاً، يا بني. وكثيرون من الرجال كذلك بقوا في الوطن. البلاد كلها ذهبت إلى العمل. وزرع الناس حدائق النصر من أجل طعامهم. والأولاد في جماعة كشافتي جمعوا علب الصفيح والصحف. كانت الأشياء نادرة. وهذا هو السبب الذي لم يستطع الأطفال من أجله أن يمتلكوا الألعاب الجديدة دائماً، وكان يتعين على آبائهم أو أعمامهم أن يصنعوا لهم مكعبات وبيوت الدمى."

كان أبي يشرح لي الأشياء دائماً بشكل أستطيع معه أن أرى صورة. وهكذا وبعد

سنوات عديدة لاحقة، أستذكر ذلك الأصيل بوضوح. وكان هذا هو أول تقدير لي للحرب. ما تعلمته كان واضحاً: الناس الأشرار بدؤوا الحروب، وكان يتعين على الأمريكيين أن يذهبوا إلى الحرب. لقد كنت قد فهمت من قبل أن القطط تدهس. وأن العجول المخصيّة تذهب إلى المسلخ. ورأيت الآن أن بعض الأولاد لم يعودوا إلى الوطن عندما ابتدأت الحروب.

"هل سيكون علي أن أذهب إلى الحرب؟"

كدس أبي الألواح الخشبية المشذبة على الرفرف وتنهد. وقال: "تومي ري، آمل ألا يكون ذلك. ولكنك اعتدت على أن تلعب بتلك المكعبات التي قطعتها قبل قليل، لأن هناك المزيد من الناس الأشرار الذين يبدؤون الاضطراب في مكان يدعى كوريا. وأعتقد أن أمريكا سوف تتورط بزمن شاق آخر، يا بني."

وضعت مكعباتي في مربع وانحنيت بعدئذ إلى الأمام لأنبش في التراب الوسخ بين كاحلي، معجباً بالبق المتلون كلون الصدأ والمندفع حشوداً من الأرض. كان البق يبدو غاضباً مثل مليون جندي. وعوعت، "أوه، هيه...أبي." كان البق يزحف صاعداً على ساقي ويقرصني.

خطفني أبي للأعلى بذراع واحدة وهز رجلي بنطلوني الخافقتين. "تومي ري، كنت جالساً على قرية نمل. تلك الشياطين الصغيرة نمل أحمر، يا ولدي. إنها كريهة."

كنا الآن على سدادة حنفية الحديقة، وأدار والدي الماء على كل كاحلي. شعرت بها باردة. ولكني في عقلي تصورت حشوداً من الجنود ومعهم بنادق مثل بندقية الصيد التي يملكها والدي من عيار 12، يفورون خارجين من الأرض مثل النمل تماماً.

تلك الليلة، استحممت، وتلوت صلواتي. وغطتني أمي لأنام، ولكنني لم أستطع النوم مباشرة. لقد تعلمت معلومات هامة جديدة تحت ظلال أشجار الحور

الأمريكي. عندما تنشب الحروب، يذهب الأولاد ليقاتلوا، وتعمل الأمهات بجد، ويبقى الصبية مثلي بدون ألعاب.

كان أبي رئيس فريق كشافة طوال ما أستطيع أن أذكر من الوقت. وأحد الأشياء الرائعة حول ذلك الأمر هو أنه كان علي أن ألتحق معه في رحلات ميدانية ومعسكرات تخييم، وهي مغامرات كبيرة في أماكن مثل كهف اللصوص في حديقة الولاية (روبرز كيف ستيت بارك) وشلالات تيرنر (تيرنر فولز).

في يوم سبت، من تشرين الثاني/ نوفمبر، أركبَ أبي فرقة كشافة واينوود في حافلة ركاب قديمة صفراء مدرسية، وسارت بنا زهاء ساعتين باتجاه الشرق إلى سجن الولاية في ماك أليستر. كان يوماً قارس البرد غائم الجو، وبدت تلك الجدران الإسمنتية العالية سوداء باردة عندما كان صريف سيارتنا يصل إلى التوقف في منطقة مواقف السيارات.

ونادى والدي من مقدمة السيارة: "حسناً، يا أولاد، لا ممازحة ولا مخاشنة معاً اليوم. أنصتوا وافعلوا ما يقوله لكم الضباط"

وأجاب الأولاد معا كالنشيد: "نعم، يا ري." فلم يكن الأولاد ينادون والدي "سيد ري، قط." ولكنهم كانوا دائماً يفعلون ما يطلبه والدي منهم.

وعندما اصطفق الباب الفولاذي وأوصد خلفنا بعنف رجّع النفق الضيق عبر الجدار أصداء مثل أصداء كهف. وأمسكت بيد أبي ونحن نمشي إلى الداخل. كان هناك المزيد من الأبواب التي تصطك والقضبان المعدنية بالدهان الرمادي على شكل أصابع. كانت رائحة شمع الأرض محمّضة. وقادنا رجل طويل، على رأسه قبعة الشرطة وعليه حزام جلدي لامع للمسدس، إلى داخل حجرة فيها مقاعد مدرسية. كانت هناك لافتات فيها كلمات كبيرة طويلة في حروف سوداء وتحتها خط بالأحمر.

وكاد الضابط يصرخ تقريباً وهو يقرأ قواعد السجن. ولم أفهم أي شيء مما قاله، ولكني عرفت كلمات هي "العقوبة،" "خبز وماء،" وحتى "عزل انفرادي،" من برنامج غرين هورنت في الراديو. كان الأولاد هادئين.

وقال الضابط ذو الحزام اللامع: "نستطيع الآن أن نبدأ جولتنا، يا سيد فرانكس."

ومشينا على طول قاعة فرشت أرضها بالمشمع وكان يصدر عنه صرير عند المشي، وعبرنا مزيداً من البوابات ذات القضبان المعدنية. بعدئذ انفتح باب فولاذي على حجرة كبيرة فيها أضواء تتلألأ وتتدلى من السقف.

وأعلن الضابط: "قاعة الطعام."

ووقفنا على طول الجدار نراقب. كان رجال يلبسون لباساً موحداً مخططاً بالأبيض والأسود، مثل ملابس النوم المخططة جانبيا يُنقلون بلا نظام من باب آخر. وكانت شعورهم مقصوصة لتكون قصيرة جداً حتى بدت رؤوسهم بيضاً. وأبقوا أيديهم مشبكة خلف ظهورهم حتى وصلوا إلى خط الطعام. وكان ضباط يحملون عصياً خشبية طويلة سوداء يراقبون من عند أركان القاعة. وكانت تسمع طقطقة الحذاء الجلدي على الأرض، ولكن لم يكن يسمع صوت إنسان واحد. وقف كل رجل منهم، وتناول صينية معدنية، ثم تحرك إلى الأمام ليحصل على طعامه من زملاء سجناء يلبسون القبعات البيضاء الخاصة بالطهاة ويقفون خلف المنضدة التي يتصاعد منها البخار.

وقال الضابط: "الغداء اليوم لحم عجل مطبوخ، وخبز وزبدة نباتية، وكعك بالسكر، ويستطيعون تناول الماء، وكوباً من الحليب، أو فنجاناً من القهوة."

وظهر لي من المكان الذي كنت أقف فيه أن اللحم الذي يجري غرفه إلى الصواني كان رقيقاً ومصفراً.

وسأل والدي: "أي نوع من الأحكام يقضي هؤلاء الأشخاص؟"

وقطب الضابط وجهه وقال: "إنهم في معظمهم يقضون مدة طويلة، ياسيد فرانكس. ممثلون شريرون... لصوص مصارف، خاطفون، وعدد من القتلة خطأ من غير قصد، والأحكام بالقتل العمد. وأظن أن متوسط الحكم على هذه المجموعة هي في حدود عشرين عاماً."

وقال والدي: "عشرون عاماً في السجن يا أولاد. إذا انتهكتم القانون فإن هذا ما سيحدث."

لم أفهم في البداية. ثم استوعبتها بعدئذ. انهب مصرفاً، وهذا هو المكان الذي يرسلونك إليه.

وقال والدي ونحن نغادر قاعة الطعام: "هذا هو ما يسمى عاقبة أعمالكم، أيها الأولاد."

وأخذ أبي يدي ثانية وقال: "حسناً، نحن صرنا جادين، وهكذا، فإذا كان هناك أي واحد منكم يشعر أنه متعالم مغرور يعرف كل شيء، فمن الأفضل له أن يتخلف وينتظرنا هنا."

دهليز آخر قاد إلى باب فولاذي أخضر. وقال الضابط: "هذه غرفة تنفيذ حكم الإعدام. في يوم التنفيذ نأخذ المحكوم عبر هذا الباب."

وفتح الباب الأخضر، ورمشت أعيننا من الأضواء الساطعة في الداخل وملأ الحجرة كرسي كبير. وكنت أستطيع أن أشتمّ رائحة الجلد.

وقال: "حسناً، يا أولاد، اصطفوا."

وتراصف الأولاد في خط مستقيم وصل إلى خارج الباب الأخضر، وبعدئذ، تحركوا إلى الأمام، واحداً في كل مرة، ليجلس في الكرسي الخشبي الكبير.

وشرح لي والدي: "هذا هو الكرسي الكهربائي، يا تومي ريّ، إنه المكان الذي يعدم فيه القتلة عمداً عن سبق إصرار."

ودنا الأولاد ببطء إلى الأمام. بعضهم جلس في الكرسي مدة أطول من الآخرين. المنفذ فيه حكم الإعدام عنى لي أنه مقتول، ذلك هو الحد الذي عرفته.

وأخبر والدي فرقة الكشافة: "هذه هي العاقبة النهائية للفعل النهائي من الشر." وعندما كان جميع الأولاد قد جلسوا في الكرسي، جاء دوري. فوصلت

للأعلى وأحسست بالملمس الناعم للخشب، وسيور الجلد ذات الإبزيم المعدني البارد. وكان هناك قبعة فولاذية سوداء تتدلى للأسفل مثل مصباح بدون لمبة.

قال والدي: "للأعلى وهيا، يا توم ري" وهو يرفعني إلى الكرسي. كان الأولاد يحدقون بي. ولكنني لم أكن خائفاً ولا أقل الخوف. وقد وقف أبي إلى جانبي تماماً. وكنت أستطيع أن أشعر بيده الدافئة إلى جانب الإبزيم المعدني البارد.

وعندما كانت الحافلة المدرسية تدمدم خارجة من موقف سيارات السجن في ذلك الأصيل، حدقت إلى الخلف في تلك الجدران العالية. لقد تعلمت درساً مهماً آخر. كانت العاقبة هي ما يتلو الفعل الذي تفعله، إذا فعلت أشياء خيرة، فسوف تجازى بأشياء خيرة أخرى. وإذا انتهكت القانون فسيتعين عليك أن تدفع الثمن.

ولم أنس قط ذلك الدرس.

عندما كنت في السادسة من عمري، انتقلنا إلى المدينة الصغيرة ستراتفورد، وهي على بعد خمسة عشر ميلاً تقريباً إلى الشمال الشرقي من واينوود. لقد عمل والدي مصرفياً، ومزارع حبوب، ورجل إصلاح، وميكانيكياً. وكان الآن جاهزا لمهنة جديدة.

عندما كنت صغيراً بدت لي نزعته القلقة طبيعية بشكل كامل. وبعد بضع سنوات أدركت أنه كان متفائلاً، حالماً، مقتنعاً، أن العمل التالي أو المهنة التالية ستجعلنا أغنياء.

والحقيقة أن والدي كان جيداً في كل شيء يضطلع به. ربما كان جيداً أكثر مما ينبغي. لم تكن هناك ثلاجة، أو محرك مثبت، أو محرك بنزين أو ديزل لم يكن يستطيع إصلاحه. وإذا جاء شخص ما وهو يسوق جراراً من نوع جون دير طراز 60 ذي الاشتعال الخلفي ليجعل ري فرانكس "يلقي نظرة صغيرة على سلسلة التوقيت الملعونة هذه" فإن والدي كان يعيد بناء المحرك. وإذا كان قد اتفق مع صاحب الآلة وصفق يده بيده على سعر من عشرة دولارات مقابل الإصلاح فإنه لم يكن ليقبل

زيادة على ذلك نيكلاً من خمسة سنتات ولو كان قد صرف خمسة عشر دولاراً على قطع الغيار!!

أحببت العيش في مدينة، وأن أكون مع الأولاد الذين في مثل عمري. وكان بيتنا ذو الإطار الخشبي يبعد مسافة مجمع سكني عن مدرسة ستراتفورد.

عندما ذهبنا لنعيش في ستراتفورد كان أبي متيقناً أنه قد وجد العمل الذي سيرفعنا لنعيش في ترف. اشترى حصة غيره في شركة صغيرة لحفر آبار الماء وانطلق في العمل ليجعل المهنة رابحة.

وكانت أمي تساند أبي دائماً في أي مشروع جديد كان يختاره. كانت أكبر منه بثلاث سنوات، ولدت لعائلة من مزارعي القطن الفقراء في أوكلاهوما الشرقية في العام 1911. ومع أنها كانت معمدة باسم لورين، فإن أسرتها نادتها باسم الدلع بيت، ربما كان ذلك هو النسخة الريفية من كلمة بتيت لمعنى "الصغيرة،" لأنها لم تصل في طولها لأكثر من أربعة أقدام وأحد عشر إنشاً في أطول يوم لها. ولكنها اشتملت على الكثير من القوة، والقلب الشجاع، والدأب في ذلك القالب الصغير. لقد أحبت أبي وأحبتني حباً شديداً كان بادياً حتى للغرباء. فأي عمل، أو مشروع، أو تحول مفاجئ في الحياة اختاره ري فرانكس كانت هي تسانده فيه.

ووفقاً لتقاليد الزمن، فكرت أمي في نفسها بصفتها زوجة وسيدة بيت حافظت على بيت شديد النظافة، وأرسلت أبي إلى عمله في الصباح في ملابس عمل منظفة ومكوية بيدها، وأرسلتني إلى المدرسة في قمصان وجينز بثنيات مكوية. وكانت أمي طاهية رائعة بذلت الكثير من العناية في الوجبات، حتى ونحن في الغالب لم نكن نملك المال لشراء الطعام المتنوع. وكانت تجلب الفواكه من الحديقة وتعبئ الأوعية الزجاجية المانعة للهواء من نوع ميسون بالفاكهة. وكانت الفطائر واحدة من تخصصاتها. وكانت تجد دائماً أدسم دهن خنزيري أبيض في سوق المزارعين لخبزها المحمّص الرقائقي. وفازت فطائرها من الكرز والتفاح بجوائز في المعارض المحلية، مثلما فازت كعكات الشوكولاته الرخامية الشكل التي كانت

تصنعها. ومؤخراً، عندما قسا الزمان باعت أمي مخبوزاتها للحصول على نقود إضافية.

كانت مهنة أبي الجديدة مركزة على حفار مستدق الطرف يصلصل وهو محمول على الشاحنة وهو من نوع بيوسايروس- إيري طراز 22. كان الطرف العامل من الحفار يُرفع ثم يُسقط بنظام كبلي يخرج من محرك ديزل هادر مثبت على حوض الشاحنة. وشرح لي والدي بأن ذلك يشبه مدق الخوازيق وله رأس مستدق فولاذي مصلد بالتغليف يستطيع أن يقطع من خلال الطين، والصلصال، وطبقات الصخر اللين ليجد الماء. وبعد أن كسب والدي القليل من المال في ذلك العام الأول، استثمر في حفار دوار حديث. وفي بعض الأحيان كان يشغل كلا الجهازين في أعمال مختلفة ويتنقل بينهما في السيارة، ليتأكد أن عمودي الحفارين يغوصان على النحو الصحيح.

وعلى الرغم من أنني كنت ولداً صغيراً فقد كان أبي يشرح لي بصبر وأناة النواحي الجميلة من المعدات. في عمر السابعة، كنت أعرف عن محرك الديزل بقدر ما كنت أعرف عن القراءة والحساب. طوال أيام الأسبوع بعد المدرسة وفي أيام السبت، كنت ألتحق بأبي في سقيفة العمل أو في مزرعة حيث كان يحفر بئراً، وكنت أساعد عندما أستطيع، ولكنني كنت بشكل رئيسي أراقب، وأنصت لأبي، وأتعلم لا غير.

ربما كان ذلك هو الوقت الذي أدركت فيه أن هناك شيئاً ما خطأ في اليد اليسرى لوالدي. وكبرت إلى أن صرت شاباً في واينوود وأنا أقبل بالحقيقة التي رأيت من خلالها أن أصابعه في تلك اليد كانت مختلفة عن أصابع اليد اليمنى. والآن درست يده وهو يدير بمهارة مفاتيح الربط الصندوقية ويضبط توترات السلسلة. كانت السلامى الأولى من أصبعه الإبهام مقطوعة، وينتهي الأصبع بمفصل لامع. وكان الأصبع الأوسط أيضاً يفتقد السلامى الأخيرة. وأدركت الآن أيضاً أن هناك شيئاً ما غريباً بشأن عينه اليسرى كان جفنها مرتخياً قليلاً، وكان بياض العين غائماً، والعين نفسها لم تكن تتحرك.

لسبب ما لم أسأله قط عن هذا. وهو لم يختر قط أن يناقش إصاباته. وبعد سنوات لاحقة، عندما عشنا في ميدلاند في تكساس قص علي خالي بوب مايرز القصة. قال خالي بوب وهو يشرح لي: "إن والدك أصيب بهذه الإصابات عندما كان في حوالي العاشرة من عمره." عندما كانت أسرة والدي تعيش في مدينة حقول الزيت سيمينول في أوكلاهوما، كان هو وبعض الأولاد الآخرين يمشون على مسارات خط السكة الحديدية في عصر يوم من أيام الصيف. وجدوا بعض الكبسولات المتفجرة النحاسية اللامعة، وهي من النوع الذي كان يضعه رجال التحويل على الخطوط لتحذير مهندسي القاطرات للتوقف بسبب عائق أمامهم. خطف والدي كبسولتين وأخذهما إلى البيت. وأمسك بمطرقة من صندوق عدة والده وأهوى بعنف يضرب على كبسولة منهما ليرى ما سيحدث. فمزق الانفجار يده اليسرى وتطايرت الشظايا إلى عينه اليسرى وتركته نصف أعمى.

ولكنني طوال كل السنوات التي أمضيتها أراقب والدي وهو يؤدي بعض أكثر أعمال إصلاح المحركات براعة أو إحباطاً، وهو مستلق على ظهره تحت سيارة أو شاحنة، ويتحسس ليستبدل لبوساً لمنع التسرب في مضخة ماء أو سدادة زيت، لم أسمع منه قط كلمة تشكٍّ حول إعاقته. كان يعمل عمله وحسب. وتطوع في الحرب العالمية الثانية على الرغم من أن إعاقته كان يمكن أن تستثنيه من الخدمة العسكرية، وخدم بمهارة في عمل ميكانيكي في القوات الجوية في الجيش.

ترعرعت في ظل والدي، فتعلمت الكثير عن المثابرة والاعتماد على الذات.

في أحد أيام الربيع بعد المدرسة عندما كنت في المرحلة الثانية، رجعت إلى البيت وشربت كوباً من الحليب من الثلاجة. كانت أمي خارج البيت في الحديقة تثبت الخيطان من أجل الفاصوليا المتعرشة التي بدأت تفرع براعمها. وتحولت خارجاً من المطبخ إلى غرفة الجلوس الباردة وجلست على واحد من الكراسي الجيدة. شمس الأصيل المتسللة من خلال النافذة ركزت الإضاءة على الغطاء الجلدي المهترىء لإنجيل الأسرة الموضوع على طاولة من خشب شجرة الكرز كان أبي

قد أعاد تلميعها. وكانت معلمتي السيدة بيرنيت قد ذكرت أننا نستطيع أن نتعلم الكثير عن أسرنا من قراءتنا للكتابات المدونة، على الإنجيل عن الميلاد والموت.

وضعت كوبي الفارغ من الحليب وفتحت الكتاب الثقيل في حضني. كانت هناك تواريخ مكتوبة بضربات أنيقة من قلم حبر، تواريخ ميلاد أمي وأخواتها وتواريخ وفيات أجدادي. ولكن كانت هناك ورقة صلبة مطوية قمت بفتحها.

وقرأت بصوت عال: "شهادة ميلاد. تومي ري بنتلي. ولد في 17 حزيران/ يونيو 1945." ذلك كان يوم ميلادي. وكنت أنا تومي ري فرانكس. فلماذا تقول هذه الورقة "بنتلي؟"

وسمعت الباب الساتر للمطبخ يُصفق مغلقاً. وناديت "أمي، هل تستطيعين المجيء إلى هنا من فضلك؟"

وقفت في مدخل الباب، ونصفها مغطى بمريلتها الزرقاء الكالحة الخاصة بالحديقة. وقالت، وكان صوتها ناعماً: "أوه، تومي ري، ما هذا الذي تحمله؟"

ورفعت شهادة الميلاد: "إنها تقول بنتلي، يا أمي، وأنا لست بنتلي. أنا توم ري فرانكس."

ولمست شعرها بالطريقة التي كانت تلمسه فيه أحياناً عندما تكون قلقة مضطربة. "طبعاً أنت كذلك. أنت تومي ري." واقتربت أمي مني ورفعت الإنجيل وشهادة الميلاد بلطف من يدي. " عندما ولدت، ارتكبوا غلطة في المستشفى، وأبوك وأنا كان يتعين علينا أن نغير الأوراق. وقد احتفظنا بهذه الشهادة القديمة تذكاراً فقط." وأعادت أمي وضع الإنجيل على الطاولة.

وتعجبت أين يمكن أن تكون الشهادة الصحيحة لميلادي. وبدأت أسأل وقد عبست قليلاً.

قالت أمي، وهي تصل إلي لتضمني إلى صدرها: "تومي ري، أنت طفلي الصغير، وأنا أحبك أكثر من كل شيء. وكذلك يحبك أبوك."

وأنا كنت عرفت ذلك. وأدركت أيضاً أن شيئاً ما حدث ليجعل أمي حزينة. وقلت وأنا أعانقها: "بالتأكيد، وأنا أيضاً أحبك وأحب أبي."

واستمر هذا الأمر كذلك ولم يخبرني أهلي إلى أن صرت طالباً في المرحلة الثانوية في مدرسة لي الثانوية في ميدلاند في تكساس، وعندها أخبرني أقاربي أخيراً أنني كنت ابناً بالتبني. ولكنني كنت قد عرفت الحقيقة سراً طوال سنوات قبل ذلك. ولم يراودني أدنى شك لدقيقة واحدة في أنهم كانوا والدي، وكانوا أسرتي.

والحب الخاص من الوالدين المتبنين لم يمنعهما من تأديبي عندما احتجت إلى ذلك. وعندما أنظر إلى الخلف، أرى أنني احتجت إليه مرات عديدة تماماً. واليوم، أظن، أنكم ستقولون إنني تعلمت أن "أضغط الغلاف" أي محاولة أن أتوصل إلى الحد الأقصى للأمور لأعرف الممكن من غير الممكن، وكان ذلك عندما كنت طالباً متميزاً في المدرسة في ستراتفورد، في أوكلاهوما.

ومثل معظم أولاد المدن الصغيرة، قضيت معظم أوقات الطقس الحار في الخارج، أتجول عادة في قيعان الجداول التي ترفد نهر واشيتا. وكان شركائي في هذه المغامرات الإخوة من آل بيلز الذين كانوا يسكنون في البيت الذي يلينا. وفي يومٍ صيفي نموذجي، كنا نصُرّ شطيرة أو اثنتين بزبدة الفول السوداني ونخرج متوجهين إلى برك الماشية في المزارع المجاورة لنا لنصطاد الضفادع. وبالنسبة إلي، مثّل هذا العمل أكثر من مجرد الدناءة الطبيعية لولد في التاسعة من عمره. فمهنة والدي امتصت معظم نقودنا المتيسرة، ولذلك كان الغداء في الغالب مكوناً من الفاصولياء وخبز الذرة. ولذلك كانت أوراك الضفادع المغبّرة بالدقيق والمقلية لتكون هشة، متعة وموضع ترحيب.

والأسلوب الأساسي لصيد الضفادع يتضمن النخس بطرف حربة متشعبة مربوطة إلى يد مكنسة. وتتجمع الضفادع الكبيرة قرب السدود الترابية للبركة والتي تكون مكسوة بالطحالب في الأيام الحارة بعد العصر. فإذا استطعنا أن نتحرك بصمت ولم نجفلها بظلالنا فإننا نتمكن عادة من نخس ثلاثة أو أربعة قبل أن تغوص الضفادع الباقية.

كانت هواية غير مؤذية بالنسبة إلى مجموعة من أولاد الريف باستثناء أن الإخوة بيلز وأنا كسرنا القواعد في كثير من المرات. فقواعد السلوك في أوكلاهوما الريفية كانت تتطلب منك أن تطلب الإذن دائماً للسماح لك بالدخول إلى أرض أحد من الناس. ونحن اتبعنا القاعدة، ولكننا لم نكن دائماً نعلن عن نوايانا الحقيقية. وفي إحدى المرات طلبنا من سيدة في مزرعة أن تسمح لنا أن نجمع جوز البَكّان أملس القشرة المتساقط من الأشجار المجاورة لبيتها.

وقالت السيدة: "مؤكد، يا أولاد. ولكن لا تقربوا بركة الماشية. فهي عميقة وزلقة."

وقلنا في صوت واحد: "نعم، سيدتي."

بعد نصف ساعة، ومعنا اثنا عشرية من الضفادع في كيسنا، قررت والإخوة بيلز، أن الجو في الأصيل كان حاراً إلى الدرجة التي لا ينبغي معها أن نرفض السباحة. وكنا بجلودنا نغطس، ونصرخ، ونغنى، عندما ظهرت السيدة على حافة البركة.

"اخرجوا من هناك مباشرة الآن."

لم يسبق أبداً أن رأتني امرأة غير أمي عارياً تماماً. ولم يكن مفرحاً أن نزحف في الطين إلى أعلى حافة البركة وتلك السيدة تحملق فينا.

كما لم يكن مفرحاً أن أصل إلى البيت لأجد أنها اتصلت بأمي لتشتكي "انتظر إلى أن يصل أبوك إلى البيت."

دخلت إلى غرفتي، غير مسرور أبداً بنفسي. والكذب كان شيئاً سيئاً فعلاً. لم أعرف أبداً أن أبي كذب على أحد.

كان مؤمناً حازماً بأن العقوبة يجب أن تتناسب مع الجريمة. كان علي أن أمشي كل الطريق راجعاً إلى تلك المزرعة وأعتذر. وبعد أن فعلت ذلك واستدرت راجعاً إلى البيت ساق أبي سيارته.

"اقفز للداخل، يا ابني لقد كذبت على تلك السيدة، يا تومي ري. هل تعلمت درسك؟"

قلت: "نعم، يا سيدي"، وأنا تعلمت أيضاً.

عندما يكون العمل جيداً كان أهلي يدللوني. ففي الصيف الذي كنت فيه في الثامنة من عمري اشتروا لي فرساً ربعية، لسباق ربع ميل، مرقطة وعلموني أن أركب الخيل. لقد أحببت غراي المسنة. كانت فرساً صبورة ولطيفة. وكنت عندما أركبها أستطيع أن ألعب دور بوب ستيل، مثل مسلسلات رعاة البقر تماماً في النهار بعد الظهر من أيام السبت.

وكان الحرج الذي يزعجني، هو أن كل راعي بقر حقيقي يملك مسدساً. وكان أبي يعلمني الرماية على بندقية نفخ قديمة مسدّسة السبطانة من نوع وينشيستر عيار 0.22 وبندقية صيد من نوع ريمنغتون عيار 0.410. ولكني لم أكن بعدُ مخولاً أن آخذ البنادق وأخرج بها وحدي. وهكذا ففي عصر يوم ممل من تموز/ يوليو، قررت أن أستعير ثمانية دولارات فضية من الكيس المخملي في صندوق الأسرة المصنوع من خشب الأرز. وقدرت أني أستطيع أن أكسب ذلك المبلغ في بضعة أسابيع من سرقة جوز البكان وبيعه إلى السيد هيربرت في مخزن مواد بيورينا.

وفي مركز المدينة في المخزن العام، دفعت تلك الدولارات الفضية مقابل مسدس بي بي نفخ هوائي من نوع ديزي رد رايدر.

وبعدئذ، بعد أن تسلحت مثل يد مجربة حقيقية، ركبت غراي إلى أرض الروديو لاختبار مهارتي في الرماية. كان ذلك اليوم هو منتصف الأسبوع، ولم يكن يوجد أحد في المكان. وكانت أفضل الأهداف هي المصابيح الكهربائية المركبة تحت العاكسات الصفيحية حول المدرج. أول طلقة لي أخطأت، وأصدرت صوتاً حاداً من الارتطام بالمعدن. والطلقة الثانية أصابت المركز تماماً مع صوت "بوب" مرضٍ. وواحدة بعد أخرى أطلقت النار على اثني عشر مصباحاً. ووقفت غراي ساكنة تحت سرجي، وانحنت رقبتها القوية وهي تقضم العشب الجاف.

كنت أغسل يدي لتناول الغداء عندما طرق شرطي المدينة على الباب الأمامي لبيتنا. وخرج أبي للخارج ليتحدث معه. وفكرت: حسناً، لا يمكن لهذا أن يكون له علاقة معي، ثم توجهت نحو المطبخ للغداء.

لم أفعلها.

وقال أبي وهو حزين أكثر مما هو غاضب: "تومي ري، تعال إلى هنا الآن فوراً." كان الشرطي يسوق سيارته مبتعداً، وهكذا فعلى الأقل لم يكن يتعين علي أن أواجهه. "حسناً يا بني، هل ستخبرني بما حدث؟"

"نعم سيدي."

لم تكن قصة لطيفة. سرقة وتخريب الممتلكات العامة.

وهذا تطلب أكثر من الاعتذار. أخذني أبي خارج باب المطبخ ونزع حزامه. لم يكن قد ضربني من قبل إلا بضع مرات فقط، ولم يضربني أبداً في الحقيقة ليوقع بي عقوبة جسدية، وكان القصد في الأكثر هو التشديد على حقيقة أني كنت ولداً سيئاً. اليوم تلقيت ثلاث ضربات قوية سريعة على المؤخرة.

في المطبخ علمت بقية عقوبتي. سوف يتوقف مصروفي المخصص إلى أن يتم إعادة المال المسروق ودفع تكاليف الأضواء الأرضية لمدرج الروديو. وتقيدت حركتي في الفناء- إلى أجل غير محدود. وكان هذا أشد إيلاماً من الحزام. ولا ذهاب إلى عروض السينما أيام السبت بعد الظهر في ستراتفورد لزمن طويل جداً. وفي مقابل خمسة وعشرين سنتاً من مخصصاتي المعتادة وهي دولار في الأسبوع، كنت قادراً على استخدام عشرة سنتات لشراء تذكرة، ثم أصرف الباقي على كازوزة مياه غازية وكيس بوشار ذرة، ومخلل بخمسة سنتات لكل منهما. وبعد أن أكون قد تزودت بشكل مناسب، كنت أستطيع أن أجلس في ظلام السينما مع الأخوة بيلز ونشاهد آخر حلقة من أفلام فلاش غوردون أو الرقيب بريستون من الشرطة الملكية المحمولة. والآن علي أن أبقى في البيت لمدة شهرين على الأقل.

في يوم سبت مطير في شهر آب/ أغسطس، وأنا أتسكع مكتئباً في حجرتي أفكر بأولاد بيلز وهم يقرشون المخلل في العرض السينمائي، تذكرت ذلك الصف الساكن من المحكومين في اللباس الموحد المخطط، وهم يدخلون متثاقلين إلى قاعة الطعام في السجن.

الفعل والعاقبة. الدرس الحقيقي لتلك الرحلة الميدانية للكشافة جاء فجأة ليكون محط التركيز.

لم يكن أبي راضياً عن عمله في حفر الآبار. ولم تبق أمي قادرة على أن تستمتع بالعيش في المدينة الصغيرة، أوكلاهوما. وفي الصيف بين مرحلتي الرابعة والخامسة انتقلنا 350 ميلاً جنوب غرب إلى ميدلاند في تكساس. كان لأمي عائلة هناك، وكنا دائماً نذهب في السيارة إلى ميدلاند لقضاء عيد الميلاد. كان عظيماً هذا التوجه بعيداً إلى مدينة كبيرة.

في أثناء انتظارنا للبيت الجديد الذي كانت عائلتي تبنيه في الضواحي لينتهي، عشنا مع أخت أمي ميلدرد، ومع خالي بوب مايرز، في بيتهم الكبير المريح في 1205 شارع وست وول. كان هذا الجوار ثرياً، وليس بعيداً من مركز المدينة. وكنت أمشي كل يوم ما يقارب نصف ميل إلى مدرسة وست الابتدائية من خلال قطاع المدينة المسمى "ميدلاند القديمة" وهي مساحة من بيوت من آجر من دورين أو ثلاثة بنيت في أثناء ازدهار صناعة الزيت في العشرينيات من 1920.

في أواسط الخمسينيات من 1950، كانت ميدلاند واحدة من أغنى مدن أمريكا. كانت حقول الزيت في بيرميان بيسن تنتج أكثر من 20 بالمائة من نفط أمريكا. وهذه المدينة التي يبلغ عدد سكانها 65.000 نسمة كان فيها أكبر وكالة للرولز رويس في البلاد. وبعد سنوات قليلة لاحقة كانت تفخر بأكبر وكالة عن شركة النفاثات الخاصة ليرجت كذلك. كانت مجتمع ازدهار اقتصادي وأزمة اقتصادية، ثم أزمة وازدهار. المنقبون المغامرون الذين استطاعوا بالحظ، وبالمهارة، وبالمكر وأحياناً بممارسات تجارية هي موضع الشكوك، أن يكسبوا عقود زيت منتجة، كانوا من بين

نخبة المدينة مع كبار المهندسين والمديرين التنفيذيين لشركة همبل للزيت التي ستصير شركة إكسيون. وهم معاً شكلوا عضوية نوادي ميدلاند ورانشلاند هيلز كنتري، ونادي النفط.

وخالي بوب جمع نقوده من الزيت، بادئاً في الحقل وعاملاً على شق طريقه صعوداً في سلم الشركة لينال تقاعداً مبكراً قبل بلوغه سن الستين. كان رجلاً مرحاً ودوداً يحب أن يوجد معه شاب في محيط البيت.في كل صباح ساق خالي بوب سيارته إلى مركز المدينة لتناول القهوة والفطائر في مقهى آغنيس كافيه، حيث كان يجتمع فيها المبذرون الجدد المسرفون في الترفيه، ووجهاء المال القدامى. وكان بوب يصر دائماً على تقديمي، مع وقفة للمصافحة، إلى هؤلاء السادة الأثرياء.

المنقبون المغامرون الذين قابلتهم بدوا مثل شيء خارج من فيلم سينما. كانوا يلبسون قبعات رمادية ذات رفراف عريض وبدلات رمادية من طراز ستيتسون غربي بسترةٍ ذات فتحتين في الخلف. وأحذيتهم، أحذية رعاة البقر، مصنوعة باليد من الجلود المدبوغة الغربية. وكثيرون من هؤلاء الرجال كانوا يغادرون مقهى آغنيس في أواخر الصباح، وشرح ذلك خالي بوب بأنه للتلاقي في بار الساعة 007، حيث سيرفعون أول شراب مارتيني لهم بحلول منتصف النهار. وقال لي: "ذلك هو المكان الذي يديرون فيه أعمالهم التجارية الحقيقية، يا تومي ري." فهم يعقدون صفقات الزيت، ويبيعون ويشترون عقود الإيجار التعدينية، ويستدينون ويقرضون المال، ويقيمون حفلات ضخمة، عندما تكون الصفقات قد تجاوزت الخط إلى شركات الزيت الكبيرة.

وحتى في أوقات الازدهار الاقتصادي، كان هناك، مع ذلك، دائماً أزمات اقتصادية من حين إلى آخر. في أحد أعياد الميلاد كان أحد المنقبين المغامرين قد دفع نقداً من أجل سيارتين من كاديلاك، من نوع كوبيه دوفيل، إحداهما زهرية لزوجته والأخرى زرقاء لنفسه. بعد ثلاثة أشهر، بعد أن أفلس تماماً، جاء يزحف، إلى جماعة الضغط في البنك الوطني لميدلاند بحثاً عن ائتمان جديد.

خالتي ميلدرد امتلكت وأدارت محل تجميل في مركز المدينة في عمارة البترول. لقد عملت بجد طوال حياتها وعانت من ألم الطلاق عندما كان ذلك وصمة عار حقيقية، ولكنها حافظت دائماً على كرامتها... وحافظت دائماً على الابتسامة تعلو وجهها. وربما أحبت بوب بقدر ما أحبت أمي والدي. ومثل بوب، عاملتني خالتي ميلدرد مثل واحد من أولادها، واهتمت اهتماماً نشطاً بحياتي، وكانت دائماً مصدراً للتشجيع.

إحدى بناتها بيتي، كانت متزوجة من ليللاند "دوسي" فوستر، وهو مصرفي محترم في ميدلاند. وكان دوسي مثل أبي، قد خدم متطوعاً في سلاح طيران الجيش في أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد ملنا أحدنا إلى الآخر من البداية. وكانت متعة كبيرة أن أذهب لزيارته في المصرف. وكان يرافقني إلى غرفة اجتماع مجلس الإدارة وكأنني رجل زيت ثري، وتقوم سكرتيرة بإحضار مشروب غازي وفطائر دونَت لنا. وإذا وصلت عند وقت الغداء، كان دوسي يأخذني دائماً لأتناول معه لحم صدر البقر أو الدجاج في مطعم جوني باربكيو وهو مَعلَم محلي بارز. وأحد الأشياء التي تعلمتها من دوسي فوستر هو أن أعامل الناس باحترام، مهما تكن طبقتهم الاجتماعية أو حجم حساباتهم المصرفية. وطبع في نفسي كذلك أن الأعضاء في جيل والده وجيل والدي هم، مثل الروماني سينسيناتوس(*) من قبلهم، قد تركوا العالم المدني ليخدموا بلادهم في زمن الحرب، ثم عادوا بعدئذ ليتابعوا التقدم في حياتهم.

والابنة الأخرى لميلدرد، دوريس جين، كانت متزوجة من جوني باودن، الذي كان يطير بطائرات شحن القوات الجوية في أثناء الحرب العالمية الثانية ومكث في العمل حتى صار ضابطا عسكريا في السلك العسكري. ونظراً إلى أن جوني عاش في ما وراء البحار لسنوات، فقد كان مهذباً عالماً بأمور الدنيا. وعندما رجع هو

(*) لوشيوس كوينشيوس سنسيناتوس (٥١٩-٤٣٨) قبل الميلاد سياسي من روما استدعي مرتين من مزرعته ليتولى ديكتاتورية روما، فكان يصلح الأحوال ثم يتخلى عن السلطة ويعود إلى مزرعته.

ودوريس جين إلى ميدلاند كانت هناك دائماً سيارة أولدزموبيل أو بويك جديدة. وعندما كان يلتحق برجال الأسرة ليذهبوا إلى صيد السمّان، كان يطلق النار دائماً من بنادق صيد أوروبية مصنوعة صناعة يدوية. وبعد أن تأثرت تأثراً كبيراً بأبي، وبدوسي فوستر، وبجوني باودن، في الثانية عشرة من عمري، كنت أفكر في أن المصير إلى أن أكون ضابطاً عسكرياً ربما يكون عملية جيدة مناسبة.

وجد أبي عملاً كتابياً في إدارة السلع الرياضية في شركة بيسن سبلاي. وهذا المخزن الضخم الموجود على الجانب الغربي الأدنى كان مؤسسة ميدلاندية بدأ بها رجل زيت في أثناء سنوات الازدهار الاقتصادي. شركة بيسن سبلاي ما زالت تبيع حاجيات الحفر ومعدات أخرى لحقول الزيت، ولكن ميدلاند نمت، وبدأت الشركة بتوريد أثاثات البيوت والأدوات الغالية الثمن. وقدموا كذلك سلعاً من التلفازات عالية الجودة والمسجلات عالية الوثاقة، وتنويعة مختارة من السلع الرياضية.

ولأول مرة منذ أن كان قد عمل في المصرف في واينوود لبس أبي قميصاً أبيض وربطة للعمل.ثم بعد ذلك، وبعد مدة، ذهب "تكسانيا" وبدأ يلبس ربطات بولو رقيقة مع صنادل فضية فيروزية. وكان زبائنه يشترون سترات من نوع باربور. وبنادق صيد من قمة السلع من نوع براوننغ، ووينشيستر وريمنغتون من عيار 12.0، وهي بنادق صيد السّمان كما كنا نسميها.

صيد السمّان،كان وهو ما يزال، طريقة حياة في ميدلاند. بين خالي بوب وروسي فوستر امتلكت الأسرة الوصول إلى بعض أفضل صيدٍ للطيور في أي مكان في المزارع وفي مدينة عقود إيجار الزيت المحيطة. كان بيت بوب هو المقر. كنا نذهب في الصباح الباكر للصيد، ثم نرجع لنلعب البليارد في غرفة الألعاب لدى بوب أو لنشاهد كرة القدم في الكلية في التلفاز. وفي أوقات عيد الميلاد،عندما كان يقدم شراب البيض مع الكحول فإن قليلاً من ويسكي جاك دانييل كانت تجد طريقها دائماً إلى فناجين البالغين. كان صيد السمان والتردد على مصرف ميدلاند الوطني أمتع بكثير من نخس الضفادع في أوكلاهوما.

عند المشي في الذهاب إلى المدرسة والإياب منها كنت اجتاز قصر تيرنر، وهو أكبر وأغنى بيت في المدينة. الآجر الأحمر، والمروج الخضراء المتدرجة برشاشات الماء الآلية، وفي البيت حوض سباحة وملاعب كرة المضرب. وكنت أعرف في المدرسة أولاداً كانت أسرهم تسكن في بيوت بالضخامة نفسها.

كانت ميدلاند مدينة مثيرة للاهتمام. كان فيها بضع مدارس خاصة، وبالنسبة إلى الجزء الأكبر من أطفال الأسر الثرية فهم لم يكونوا مفصولين عن بقية العالم. قد لا يختلط آباؤنا بالضرورة اجتماعياً، ولكننا نحن الصغار لم نعط كبير اهتمام للمال. وفي الحقيقة كنت جاهلاً جهلاً مطلقاً. وأتذكر أنني فكرت في أنه سيكون جميلاً لو التحق أبي بنادي البلد كي أستطيع بذلك أن أركب دراجتي هناك وأن أسبح في حوض السباحة. وبعض الأولاد من عمري كانوا يتعلمون أن يلعبوا الغولف، وذلك قد يكون متعة أيضاً.

لم يكن لدي أي فكرة عن أن أبي كان يكافح في سبيل راتب متواضع، ويساعد في دفع الرهن الموضوع على البيت الجديد عن طريق العمل في نهاية الأسبوع بصفة ميكانيكي تحت الأشجار الكبيرة من أجل توفير الظل. لو لم أكن أقصر اهتمامي على نفسي، لأدركت أن أسرتي كانت ينقصها المال. ونحن لم نكن "فقراء معوزين" كما يقول المثل المحلي، ولكن كانت هناك أوقات يكون فيها المال النقدي نادراً.

سوف أتذكر دائماً في أحد أيام الجمعة مساء بين موعدي الراتب عندما طلبت من أبي بعض نقود المصروف. كنا نسوق السيارة إلى بيت خالي بوب، واستدار والدي ووقف أمام مخزن بقالة صغير على الركن في الجانب الغربي من شارع أندروز العام. كنت أعرف أن أمي كانت تتسوق هنا أحياناً، وهو أمر بدا لي مضحكاً لأن المخزن كان نائياً.

قال أبي: "تومي ري، ادخل وأخبر الرجل الواقف خلف سجل النقود من أنت واطلب منه خمسة دولارات إلى يوم دفع الراتب التالي."

جلست في المقعد الأمامي عابساً. كان ذلك نوعاً من شيء تفعله الطبقة الدنيا، كما فكرت، وهو محرج تماماً أيضاً "لا، يا سيدي. أفضل ألا أفعل."

وسألني: "لماذا؟"

وقلت أخيراً: "أنا لست فخوراً باسمي."

قال أبي: "حسناً، يا بني." وهو يشغل محرك سيارة الميركوري ويغير إلى الغيار الأول في تعشيق المسننات. ودس يده في جيبه وأخرج منها عدة أرباع وورقة دولار مجعدة. وهو ما دعته أمي "نقود قهوة أبيك." ووضع الفكة والدولار في يدي. وقال: "هذا سيكفيك لنهاية الأسبوع."

أخذت النقود، بدون أن أفكر في ذلك الوقت كيف سيدفع أبي لقهوته وتبغه في الأسبوع القادم. وعندما ذهبت إلى السينما في تلك الليلة واشتريت كيساً كبيراً من بوشار الذرة بالزبدة فكرت في أنه سيكون جميلاً لو لم نكن أناساً فقراء. وأعدت تشغيل هذا المنظر بذهني ألف مرة طوال مسيرة خمسين عاماً تقريباً، وإني لآسف أن أقول هذه الكلمات: "لست فخوراً جداً باسمي" حتى هذا اليوم.

كان يوجد ناس من الفقراء في ميدلاند. وكان خالي بوب قد بدأ عملاً تجارياً صغيراً ليكون بصفة عمل تقاعدي له وسماه شركة البناء بيف بانغ. ولم تكن الشركة تدر المال الكثير، ولكن بوب لم يكن يأبه لذلك. كانت أحياء السود والهسبان، الذين كنا نسميهم آنئذ بالزنوج والمكسيكيين، جنوب خط السكك الحديدية لشركة يونيون باسيفك، أحياء مرهقة ومهملة. كان بوب يشتري البيوت هناك ويعيد تجديدها وإصلاحها وبيعها وفق رهنيات ذات فوائد منخفضة لعائلات لم تكن تستطيع أن تتأهل لأخذ قرض من المصرف.

وبدأت أعمل معه في أثناء الصيف وبعد المدرسة. وكنت أعرف طبعاً أن المدينة كانت مفصولة، وأن الزنوج والمكسيكيين كانوا يذهبون إلى مدارس مختلفة. وافترضت أن السبب في هذا الفصل هو أنهم كانوا مختلفين، وهم نوعاً ما ليسوا

جيدين بالقدر الذي عليه الناس البيض. والجماعة الوحيدة التي سبق لي أن قابلتها كانت من البيض. وعندما كنت أقطع وأعلق العلامة التجارية مع خالي بوب أتيحت لي الفرصة أن أقابل أولادا من الزنوج والمكسيكيين. وقد أصبت بالدهشة عندما اكتشفت أنهم كانوا يتحدثون اللغة الإنجليزية بالجودة نفسها التي كنت أتحدث بها، وأنهم كانوا لطفاء الصحبة، وأن أمهاتهم كن يطبخن طعاماً عظيماً مثل ما كانت تفعل أمي. ولم يكن بوب رئيساً قاسياً، ولذلك، فربما أمضيت في قذف كرة القدم مع أولاد هذه الأحياء في المساحات الفارغة بقدر ما كنت ألوح بالمطرقة وأهوي بها.

في إحدى الأمسيات رجعت إلى البيت وأخبرت أمي، "لقد قابلت أبرع ولد في البيت الجديد لخالي بوب في شارع كامب ستريت. اسمه ليروي وهو بالتأكيد يستطيع أن يقذف كرة القدم."

قالت: "هذا جميل. وهل يذهب إلى مدرستك؟"

"لا يا أمي. إنه زنجي."

وفي أصيل اليوم التالي، رفعت رأسها عن دحرجة عجينة الفطيرة وسألت بلطف: "هل رأيت صديقك الزنجي الصغير اليوم؟"

لقد سمعت تلك الكلمة طوال حياتي، ولم يخطر لي قط أن والديّ كانا متعصبين كانت تلك كلمة ترعرعوا معها وبدا طبيعياً أن أسمعهم يقولونها.

وقلت: "حسناً، ليروي زنجي وربما سيلعب في موقع الظهير الخلفي في العام القادم في مدرسة بوكرتي. واشنطون الثانوية."

"ذلك جميل يا تومي ري."

لم تكن أمي شخصية خبيثة. ولقد أدركت فيما بعد، أنها وأبي، كانا جاهلين، ولم يكونا شريرين. لقد اخترت في ذلك اليوم بهدوء أن أنظر إلى الناس على نحو مختلف.

التحقت بالكشافة في حيّنا الجديد. وكان ارتداء اللباس الموحد يعطيني

إحساساً بالكبرياء، ولاسيما أن أمي كانت دائماً تكوي اللباس حتى درجة الكمال الخاصة بساحة العرض وكان أبي يرتب كل شيء قبل اجتماع كل فرقة كشافة. لقد أحببت تحدي القيام بالدراسة والعمل في مشاريع لكسب شارات التقدير المميزة. والوصول إلى الرتبة كان سهلا في ذلك الوقت، فقد كان أبي يصرف الكثير من الوقت ليعلمني شخصياً. وطوال سنتين كان وصولي إلى أن أكون أفضل كشاف ممكن، غاية تستحق العمل.

ثم جاءت مدرسة ألامو الإعدادية. فالبنات في صفي بَدْونَ مختلفات تماماً عن الأولاد، ولا شك في ذلك، وكن أكثر إثارة للاهتمام بكثير. كانت الكشافة ما تزال متعة، ولكن جاذبية كسب شارات التقدير في الرماية وفي إنقاذ الحياة بدأت تتلاشى سريعاً.

وفي المرحلة التاسعة، صارت الكشافة أولوية منخفضة في حياتي. وكانت الدراجة البخارية هي أهدأ الممتلكات التي كان أي ولد يستطيع أن يمتلكها، وهي من نوع كشمان إيغل قوة خمسة أحصنة، مع مقودها العالي من طراز هارلي دافيدسون وخزان بنزين بشكل الدمعة المنسكبة. كان أبي يدللني دائماً. ولذلك، ففي شهر نيسان/ إبريل 1959، قبل شهرين من بلوغي السنة الرابعة عشرة من عمري لأستطيع أن أقود دراجة بخارية بشكل قانوني، ساعدني أبي على أن أشتري دراجة من نوع إيغل حمراء من طراز 1952. كنت أعمل مع أبي بعد المدرسة بصفة مساعد ميكانيكي، وهكذا، فالنقود التي أضافها إلى مدخراتي القليلة كانت من الناحية الفنية، راتباً مدفوعاً مقدماً. وكان أهلي قد سبق أن أعطوني سترة سوداء من جلد حصان من نوع سترة الممثل جيمس دين. وكنت الآن مستعداً لأتسبب في خلق اضطراب في المدرسة الإعدادية.

تلك الدراجة كانت هادئة بشكل محدد. وعلى الطرق العامة قرب المدينة إذا وجدت منحدراً كنت أستطيع أن أدير المقود حتى أسجل سرعة 50 ميلاً في الساعة والصمام الخانق مفتوح باتساعه الكامل. ولكن الدراجة كانت صعبة في بدء

التشغيل، وهو أمر محرج أن أعرض على أحد أن أُركِبه للبيت من المدرسة، وأدعس على بادئ التشغيل الرفاس، فيرفض المحرك أن يدور! وكان مسنن البدء ينقص سناً، فإذا لم يتراصف ذلك المسنن على نحو سليم تستطيع أن ترفس طوال اليوم ولكن دولاب تنظيم السرعة لن يدور.

في مرات مثل هذه كنت أرجع إلى البيت وأستدعي أبي. "الإيغل (النسر) رفض أن يشتغل." بعد عشر دقائق يكون أبي هناك. وكان يهزهز دواسة البدء، ويؤرجح الدراجة للخلف وللأمام، ثم يعطيها رفسة، فيعود المحرك إلى الحياة، مع صوت مثل هدير جزازة العشب من نوع برغز وستراتون. كان أبي دائماً هناك عندما أستدعيه.

وفي العام التالي، وبمساعدة أبي مرة أخرى، اشتريت دراجة بخارية من نوع كشمان إيغل طراز 58، بلون أسود وكروم جميل. واحتفظ أبي بالدراجة القديمة وجعلها تعمل بشكل أفضل مما كنت أفعل. كان يحب الدراجات. وعندما كان شاباً في الثلاثينيات من 1930، تجول في رحلة في البلاد هو وصديق له على دراجة نارية هندية، وكانا يعملان في حصاد المزارع عندما كانا يستطيعان، وكانا ينامان في غابات متشردي الكساد الكبير، ويتعلمان عن الإنسانية.

كان أولاد آخرون في المدرسة يملكون دراجات بخارية أيضاً. وفي أمسيات الصيف بعد العمل، كان أبي يلتحق بأصدقائي وبي للقيام برحلات على الدراجات إلى محل المهلبية المتجمدة، ثم نتابع إلى ملعب عصبة تكساس ميدلاند بريفز. ونشاهد الألعاب مع خالي بوب في مقصورته خلف قاعدة البيسبول تماماً. فكما يقولون، العيش عالياً، ليس مثل نصفه.

عَمِل والدي دائماً في دراجات أصدقائي، وكان يحل أي مشكلة، وصرف في الأغلب من ماله الخاص، وكان يرسل بالبريد إلى دلس طلباً لقطع الغيار. والأولاد كلهم أحبوا أبي. وبطريقته الصبورة، والكلام اللطيف، علمهم عن الحياة أكثر مما علمهم عن مجرد فجوات شمعات الاشتعال وأوضاع المفحم.

هذا الزمان كان من أسعد الأوقات في طفولة سعيدة. لعبت كرة القدم في المدرسة الإعدادية، وكان ذلك بسبب طولي أكثر مما هو بسبب موهبتي، وكنت أرمي الرمية فتوضع في النابض. ولكن تركيزي لم يكن على الألعاب الرياضية. كان أكثر ما يكون على المتعة بقطع الوقت سدى بالدراجات، وصيد الأرانب، والسمّان، والتزلج على الماء على بحيرة توماس. وكانت البحيرة على بعد يقارب سبعين ميلاً عن ميدلاند، ولكن أبي مع ذلك كان يأخذنا مراراً لنخرج يوم السبت بعد أن يكون قد أنهى عمله. وكان قد أعاد بناء محرك فايرستون خارجي بقوة 16حصاناً بحيث نركّبه على ظهر قارب ألمنيوم مستأجر. وكما كان أبي دائماً، فهو معلم صبور وكان يتأكد من أن كل واحد منا تعلم أن يقف على الزلاجات، بدون اعتبار لعدد المرات التي كنا نسقط فيها.

ومن خلال العمل الشاق ترفع أبي إلى مدير السلع الرياضية في شركة بيسن سبلاي. كان يكسب 400 دولار تقريباً في الشهر، وهي كافية لدفع الرهن في وقته وأن نضع لحماً على الطاولة في كل ليلة. كانت الأيام طيبة.

في العام 1960 دخلت المدرسة الثانوية في ميدلاند، وكانت في مركز المدينة. وكان علي أن أبقى فيها سنة ريثما تنتهي مدرسة (روبرت ئي. لي) التي كانت قيد البناء، في الجانب الغربي. وكرة القدم في المدرسة الثانوية، هي عملياً في تكساس مثل الدين، ولذلك، نافست وعملت فريق الجامعة الأصغر. ولكنني متأكد أنني لم أمتلك موهبتكم الأساسية التي منحها لكم الله. وفكرت أنني قد أكون مستلماً لائقاً، ولكن ركض أنماط المناولات تلك مرة بعد مرة في التمرين كان مللاً واضحاً. وإلى جانب ذلك، فقد كنت أكثر اهتماماً بالسباحة والصيد، وبالبنات.

وأفضل شيء كان بالمدرسة الثانوية في ميدلاند هو مركز الشباب عبر الشارع. فقد كان بلا أدنى شك أفضل مكان يتردد عليه المراهقون في المدينة. فقد كنتَ تستطيع أن تنطلق في حوض السباحة، وتستمع لألفيس في المسجل. والبنات، بالتنانير التي رسمت عليها صورة كلب كثيف الشعر (البودل) وتسريحات ذيل

الفرس، كن يدخلن ويقفن وينتظرن شخصاً ما ليطلب منهن الرقص. وكانت مواهبي في الرقص على درجة التهذيب والصقل التي كانت عليها مهارتي في كرة القدم... ولكنني كنت أملك حافزاً أكبر بكثير للتمرين هنا.

أمضيت سنوات المدرسة الثانوية الأولى والعالية في مدرسة روبرت ئي. لي حيث كنت في الصف الثاني للتخرج. واكتشفت بعد سنوات لاحقة أنه كانت هناك بنت بعدي بسنة واحدة اسمها لورا ويلش. لم أعرفها في ذلك الوقت، ولكنني عندما قابلتها منذ سنوات قليلة بوصفها السيدة الأولى لورا بوش تجاذبنا أطراف الحديث عن ميدلاند في البيت الأبيض.

في أواخر سنتي الإعدادية، زاد اهتمامي بالسيارات على اهتمامي بالدراجات. وكانت ميدلاند ثرية بما فيه الكفاية ليكون فيها الكثير من الشباب ممن ملكوا سيارات شيفي مكشوفة، حتى أن بعضهم امتلك سيارات كورفيت جديدة. وفي هذا الوقت كنت رأسمالياً صغيراً، أبيع فطيرة دونت البطاطا بالمكسرات من بيت إلى بيت بعد المدرسة، وأعمل مع أبي أيضاً. كان أبي قد ترك شركة بيسن سبلاي وفتح محلاً باسم ميدلاند مارين، وهو متجر زوارق ومحركات خارجية يقع في منتصف الطريق بين ميدلاند وأوديسا، على مسافة عشرين ميلاً غربي المدينة. لقد كان ميكانيكياً عظيماً إلى الحد الذي كان الناس معه يأتون من كل أنحاء المنطقة ليصلحوا محركاتهم من نوع إيفينرود وجونسون. ولكن بحيرة توماس كانت على بعد سبعين ميلاً، ولذلك فإن موقع المحل كان أبعد ما يكون عن المثالي.

كنت بحاجة ماسة إلى سيارة. وأخيراً وجدنا صفقة في سيارة ام جي ايه رودستر طراز 1958.

وعندما ذهبنا لرؤية صاحبها قال أبي: "إنها تحتاج إلى قليل من العمل، يا تومي ري، ولكنني أعتقد أنها ستكون سيارة جميلة لك."

وقلت: "نعم، يا سيدي. "وعملياً كان لعابي يسيل عليها. وفي أسابيع قليلة زالت كل بقع الصدأ التي كانت تعلوها، وكان الشبك المصنوع من الكروم يبرق ويخطف

الأبصار. ثم انتقلنا للعمل في المحرك ذي الأسطوانات الأربع وصندوق المسننات. وعندما انتهينا كانت سيارة رودستر من أسرع السيارات على الطريق.

وبدأت آخذها وأخرج إلى ساحات سباق السيارات في سان أنجلو في تكساس، وهوبز في نيومكسيكو. وكان سباق السيارات لربع ميل منظماً تنظيماً عالياً، وكان نوعاً من الإدمان الرياضي، وأقرب إلى أن يكون عملاً شعائرياً منه إلى الهواية. وبعد أداء مخيب للآمال لمرات قليلة، تعلمت أن أربح. كانت السيارات تقارن بالنسبة إلى قوة الحصان، وحجم الدولاب، والوزن، ولذلك لم أتسابق قط مع أي سيارة هي في الأصل أقوى من سيارتي. وتكمن المهارات في التكتيكات. معظم الأولاد كانوا متيمين بالضجة وبطاقة المحرك عالي التسارع والدوران، ولم يكونوا قادرين على الانتظار ليدفعوا الفاصل (الكلتش) عندما تبدأ أضواء شجرة الميلاد تومض من الأحمر إلى الأصفر إلى الأخضر. ولكنهم كانوا يديرون دواليبهم في سحابة رمادية من المطاط المحترق قبل أن يكون عزم دوران المحرك قد انتقل انتقالاً كاملاً إلى الأسفلت. كانوا يفقدون ثانية أو اثنتين، وهو وقت كبير في سباق ربع الميل.

وقعت في هذه الغلطة في البداية. والآن تعلمت أن أراقب طريقة عملي، محافظاً على دورات المحرك تحت الخط الأحمر كثيراً، وبقوةٍ أُطلق أعصابَ "فتحة الطلقة" مع دوي أنابيب نفث الغازات الهادرة من سيارات الأولاد الآخرين. وعندما يلمع الضوء الأخضر أقوم برفع التسارع بسلاسة مراعياً الحصول على أمثل دورات في الدقيقة من كل تعشيقة في مسنن ناقل الحركة. وبدأت أفوز بتذكارات.

وكانت قيادة تلك السيارة ام جي ايه التي تكسب السباقات إلى المدرسة هي أفضل شيء. ففي الخارج في ساحات السباق، كان الرسميون يخربشون فئة سيارتك ورقم السباق على النوافذ بالمادة البيضاء الملمعة للأحذية. ومن الطبيعي أني كنت أنسى أن أمسح المادة الملمعة قبل أن أتوقف في منطقة موقف السيارات في مدرسة لي.

اجتذبني التسكع في ساحات السباق إلى "السيارات الحقيقية". ومرة أخرى، وجدت، بمساعدة أبي، ما أردت. لقد كانت سيارة سوداء من طراز 1957، من نوع شيفي بل إير ببابين صلبة السطح وبثمانية صمامات على شكل حرف (V) وكل شيء في هذه السيارة حكى عن القوة، والفئة، والسرعة. كانت الزعانف الخلفية منسقة بالكروم، مثلما كانت كذلك الأنوار الأمامية المغطاة المائلة للأمام. وكانت الشُّبيكة الأمامية، غطاء واجهة المحرك، توحي إيحاء جنسياً خالصاً، ومصنوعة من حوالي 300 رطل من الفولاذ عالي الكروم. ومع أربع غيارات سرعة على أرضيتها، كانت السيارة تتوق إلى أن تكون آلة سباق.

معاً، أبي وأنا جعلنا ذلك يحدث. في إحدى أمسيات الربيع في محل أبي، راقبته مندهشاً، وهو يرفع المحرك القديم ويخرجه بمرفاع سلسلة ثم ينزل ببراعة المحرك 327 ذا الصمامات الثمانية بشكل حرف (V) الذي أعدنا تعميره وعززناه بشحّان مزاد الشحن. وفتحنا ثقباً في الغطا ء من أجل مأخذ هواء الكروم، وبذلك كنت في قلب العمل.

ولتوفير دواليب السباق قطرنا هذه السيارة الجديدة على ناقلة إلى ساحات السباق. وطبقت الدروس التي تعلمتها في السيارة ام جي ايه الصغيرة على السيارة شيفي الكبيرة. وحافظت على كسب التذكارات. ولكنني تعلمت أيضاً ألا أربح كثيراً جداً، وإلا فإن السائقين الآخرين يمكن أن يسجلوا تحدياً رسمياً. ففي ساحات السباق في الجنوب الغربي، كانت تلك قضية جادة. كانوا يقولون إنك لم تهزمنا بالعدل، ولكن لديك بعض التقوية غير المشروعة في المحرك. ويقوم المسؤولون عن السباق بحجز سيارتك ويفكون المحرك قطعاً، ومقاييس المعايرة بأيديهم، ليقيسوا الجوف والشوط. لم يربح أحد في تحد. وأنا استخدمت تكتيكات أخرى لأكسب. أدر سباقك الخاص بك، وليس سباق الشخص الآخر. اعرف سيارتك، واعرف نفسك.

مرت سنة دراستي الثانوية العليا سريعاً جداً، وكنت أعيش الحلم الأمريكي بلا

ريب. صيد السمّان مع رجال من العائلة، وارتداء اللباس الموحد لفريق كرة القدم لمدرسة لي، وسباق السيارات، والاستعداد لدخول الكلية.

كانت معي فتاة متزنة، هي شيل دورتي، فتاة جميلة طويلة بنية العينين قابلتها في ثانوية ميدلاند، لقد أحبتني، وأنا كنت متأكداً أننا كنا يليق أحدنا بالآخر.

وطوال سنوات عديدة، كنت قد افترضت أن الكلية سوف تتبع المدرسة الثانوية تلقائياً: وجميع أصدقائي فكروا بالطريقة نفسها. وشيل وأنا كنا نحلم بالدراسة في المدرسة نفسها، بعيداً عن والدينا. ولكن أهلنا تآمروا وسادت الحصافة الأبوية. فعائلة شيل قامت بإرسالها بعيداً إلى جامعة تكساس الفنية، وأنا قبلت في جامعة تكساس في أوستن. وكان المقصود بذلك في نهاية الأمر أن يكون هناك فترة تبريد، وقد نجحت: فشيل تزوجت طالب قانون بعد سنوات قليلة، وأنا تزوجت كاثي جين كارلي، وهو أفضل قرار مفرد سبق لي أن اتخذته مطلقاً، في الخدمة العسكرية وفي خارجها.

في مساء حار من شهر حزيران/يونيو 1963، وجدت نفسي أمشي عبر مسرح مدرسة لي الثانوية في قبعة ورداء أمد يدي لأصافح يد الدكتور ليزلي هندز وأستلم شهادتي. وفكرت، أليست هذه بلاداً عظيمة، وأنا ألوح بقبضتي للأعلى وللأسفل، وهو ما أبهج أصدقائي.

وذهبت إلى جامعة تكساس في أوستن من أجل بعض المتعة الحقيقية، أو هكذا ظننت، في صيف العام 1963م.

الفصل الثاني

"امدد لهم يد العون"

أوستن في تكساس

آب/ أغسطس 1963

كل من سبق له أن كان مبتدئاً في الصف الأول في مدرسة كبيرة عانى على الأرجح خبرة مشابهة. ففي أثناء أيامي القليلة الأولى في جامعة تكساس شعرت أني معزول، حتى على الرغم من أني كنت محاطاً بعشرين ألف طالب. وقد شغل الحرم الجامعي قطعة كبيرة من مركز مدينة أوستن. كانت هناك المروج الواسعة، ومتاهة من مباني الصفوف الدراسية، وملعب كرة قدم تستطيع مقاعده أن تتسع لسكان ميدلاند، وكان هناك برج الجامعة يطل هائلاً فوق المكان كله. في أثناء التسجيل في ذلك الأسبوع الرطب الحار في آب/ أغسطس 1963، مع الشباب المسرعين في كل طريق نسأل عنها لنحصل على التسجيل في الفصول، ربما كنت نملة من تلك التي تفور خارجة من الوسخ في مزرعة أهلي التي تركتها خلفي في واينوود.

كانت غايتي في الكلية أن أتخرج مهندساً كيميائياً. لقد أحببت العلوم في المدرسة الثانوية حباً كبيراً بما فيه الكفاية، وأحرزت علامات جيدة. ولكنني في هذه الأيام الأولى في الحرم الجامعي، لا أكاد أستطيع حتى قراءة الخريطة لتحديد موقع فصولي.

ومع ذلك، ففي وقت سريع بما يكفي، وجدت بيتاً جديداً، وكان في بيت منظمة أخوّة دلتا أبسيلون. وكان بيت دلتا أبسيلون مكوناً من أربعة طوابق بشكل مكعب من الألمنيوم الأزرق والزجاج، وكان مطلاً على ممر دائري للسيارات في شارع ليون. وعندما مشيت واقتربت من ذلك الممر وأنا أرتدي معطفي الرياضي القطني من نوع المادراس وقميصاً أبيض منشّى في أثناء أسبوع الهجمة على التسجيل، بدا لي البيت وكأنه شيء خارج من سينما الخيال العلمي. وفكرت أنه بارد لدرجة حسنة.

وإضافة إلى أن دلتا أبسيلون معروفة بمستوياتها الأكاديمية العالية، فهي منظمة الأخوة للعضو داريل رويال، المدرب الأسطوري لكرة القدم في فرق لونغ هورن، كما تلقب فرق جامعة تكساس. وسمعة دلتا أبسيلون بصفتها بيت حفلات كانت أيضاً مصدر جذب معين. وقد انسجمت انسجاماً طيباً مع الإخوة وانتقلت إلى البيت بصفة مبدئية في شهر أيلول/ سبتمبر ذاك.

لم تكن توجد أي هواتف في الحجرات، ولكن كل طابق من المبنى احتوى على هاتف وآلة صرف نقود. وبالنسبة إلى طالب مبتدئ في الثامنة عشرة من عمره ويبتعد عن بيته لأول مرة، كانت تلك الهواتف الصفراء النيكوتينية اللون إغراء حقيقياً. لقد كانت متعة عظيمة أن أتحرك باسترخاء في القاعة نهاراً أو ليلاً بقميص حرف تي وبنطلون قصير، أشغل خطوط الهاتف مع البنات ومع الشباب الآخرين الذين أكون قد قابلتهم في الحرم الجامعي. وكان الدخول في محادثة لا طائل تحتها عن الحفلة القادمة أو برنامج كرة القدم القادم أفضل بكثير من الرسم التخطيطي للجُمَل من أجل إنشاء اللغة الإنجليزية أو استذكار الجدول الدوري للعناصر. والأمر الغريب كما يبدو لي الآن، هو أن عاداتي السيئة في الدراسة بدأت على الأرجح في أثناء المكالمات الهاذرة التي كنت أقوم بها في هواتف الطابق الثاني في بيت دلتا أبسيلون.

كان أحد المشاريع التي أخذها فصلي المؤقت على عاتقه هو بناء حديقة تقديم كحول وبيرة على الفناء الخلفي المنحدر خلف البيت. وكان هذا المكان هو الذي تعرفت فيه على مايك كورلي، وجيمي سيويل، وتيري مارلات وجاك سليتون. وعلى الرغم من أننا كنا من أجزاء مختلفة من تكساس، فإننا اشتركنا باهتمام مشترك بالبنات والحفلات، وكانت المهمة عملاً مشتركاً من الحب.

ولم يكن العمل كذلك إنجازاً قليلاً من هندسة الهواة. فقد كان علينا أن نحفر في جانب التل بالمعاول والمجارف لتمهيد منصة من الوسخ لتكون أفقية من أجل أرضية مجموعة الاحتراق والآجر. وبسبب زاوية الميل فقد عانينا طويلاً في بعض

الحسابات الثقيلة لنقدر الارتفاع الصحيح للعوارض القائمة التي تمسك السطح المشبك. ومن حسن الحظ أنني كنت أستطيع أن أذهب إلى الهواتف الموثوقة وأكلم أبي في ميدلاند عندما كنا نواجه مشكلة.

وكان الجمال في حديقة البيرة هذه هو موقعها على قمة التلة. كنا نجلس ونستند في الظل نشرب ونشاهد السيارات في الشارع أسفل منا. وكانت الحديقة أيضاً تشرف على مهجع فتاتين، وهكذا فقد كان لنا مكان مثالي للتجسس على الموهبة المحلية. وكان هذا أفضل بكثير جداً جداً من الدراسة.

أذكر أنني بعد عصر يوم من الخريف في الفصل الدراسي الأول ذاك قمت أنا وجيمي سيويل، وتيري مارلات بدعوة بعض الإخوة ممن هم أكبر منا سناً إلى علبة باردة من بيرة تكساس لون ستار.

أحد الشباب، وكان يدرس الجيولوجيا، عرض أن يلقي على أسماعنا جدول معدل الصلابة المعدنية لموه، والذي كان يبدأ هكذا، "تالك، جبس، كلس، فلور..." وينتهي" توباز، كورونديوم، ماس."وحسب تقاليد تكساس لونغ هورن(*)، فقد حفظ التسلسل غيباً باستخدام الأسلوب القديم المحترم وهو حفظ الحرف الأول من كل اسم مثل (TGCFAOQTCD) بحيث يأتي حرف تي عن تالك، وجي عن جبس... إلخ. ولكن هذه الحروف الأولى من كل معدن يمكن أن تقرأ حسب تفسير آخر لكل حرف مثل تي عن تكساس، وجي عن فتاة، وسي عن تستطيع، واف عن تغازل وهكذا، وتكون هناك بالتالي قراءة ممكنة أخرى لهذا الصف من الحروف وتعني" فتيات تكساس يستطعن المغازلة ويعملن أشياء غريبة أخرى" ولكن ذلك الطالب استبدل كلمة تغازل ووضع كلمة أخرى أكثر إيماء بالعلاقة بين الرجل والمرأة وتبدأ بحرف اف. كنت أتعلم طرق العالم الحديثة.

(*) لونغ هورن، لقب تكساس التقليدي، نسبة إلى ثيران عرفت بالقرن الطويل وكانت تربى هناك.

وتحول الموضوع باختصار من البنات إلى السيارات، وهو موضوع مثير دائماً لاهتمام شباب تكساس.

قال جيمي وهو يؤشر بزجاجته إلى سيارة زرقاء 88: "تلك الأولدز لها بالتأكيد أنابيب مجموعة زجاجية كاتمة للصوت."

وحاججت: "لا. تلك سيارة عادية سيدان أصلية من الوكيل مباشرة. وربما كان يمتلكها واعظ ما."

كان الحكم بدقة على مميزات السيارات مهارة محترمة احتراماً عالياً بين الإخوة في دلتا أبسيلون. ولكن ذلك الاحترام أيضاً كان للمهارة في تقدير مفاتن الطالبات اللواتي يمشين على مهل في التعليم المختلط.

وأعلن فيل روزيكا: "البنت التي تلبس التنورة المتثنية هي فعلاً ممتلئة النهدين." وأومأ إلى فتاتين كانتا تمشيان على رصيف جانبي أسفل منا.

وعارض تيري: "ربما حشوة داخل الحمالة."

وقال فيل وهو يرتشف البيرة: "أستطيع أن أقرر حقيقة هي أنهما ليسا كذلك."

وصحنا نعبر عن تقديرنا واحترامنا. وكان فيل طالباً مبتدئاً خبيراً خبرة جيدة. وراقبت أنا الفتاة الأخرى، وكانت شقراء منحنية بشعر مسرح تسريحة ذنب الحصان وعليها كنزة صوف كشميري مزررة بشكل قائم مع سلسلة ذهبية صغيرة في عنقها. كان اسمها جانيت، ودعوتها إلى حفلة أقامتها الأخوة في ليل يوم الجمعة. وخططت أن أقوم بحركة التقرب إليها بعد أن نكون قد تناولنا قدحين من البيرة.

كان أحد الدروس التي كنت أتعلمها في جامعة تكساس هو أن الثورة الجنسية لم تكن مجرد شيء تقرأ عنه في مجلة بلاي بوي. ففي أثناء السنتين الأخيرتين اللتين قضيتهما في مدرسة لي الثانوية في ميدلاند، كنت أنا وشيل دورتي قد ذهبنا معاً بثبات. وكنت أكتشف الآن حرية إعطاء المواعيد مع فتاتين أو ثلاث مختلفات في الأسبوع، بعيداً عن إشراف والديهم، ووالدي. وتبين أن الكلية أمتع بكثير مما تخيلت سابقاً.

ولم تكن البنات هن الإغراء الوحيد. ففي الكثير جداً من ليالي الأسبوع عندما كان يجب أن أدرس، كنا نكدس مجموعة من الشباب ونحشرهم في سيارة والدَي تيري مارلات العادية، ونخبئ ثلاثة منهم في صندوق الأمتعة مع حمولة من صندوق سعة ستة زجاجات، ونتجه إلى مشاهدة فيلم سينمائي ونحن في السيارة. فإذا لم نخرج إلى السينما، فقد كنا قادرين دائماً على الذهاب لتناول بيرغر الجبنة في محلات درتي، ثم نتجول صعوداً ونزولاً في الشارع الرئيسي لأوستن، وهو شارع غوادالوب التي تُنطق غوادالووب حسب اللهجة الإنجليزية في تكساس.

ولكن الكلية لم تكن لذة خالصة بلا توقف. فنحن جميعاً تلقينا خبر اغتيال الرئيس جون كنيدي بألم شديد جداً. وألغت الجامعة الدروس بعد ظهر يوم الجمعة ذاك، والتحقت أنا بنحو خمسة آلاف آخرين من الطلاب الواجمين، والدموع في عيونهم وهم محشورون في الاتحاد، لمشاهدة وولتر كرونكايت على شاشة كبيرة لتلفاز أبيض وأسود. كان هذا اليوم حزيناً لتكساس. لقد ألهم الرئيس كيندي جيلي، وكنا جميعاً نستطيع أن نلقي ذلك الجزء من خطاب تنصيبه: "لا تسألوا ماذا تستطيع بلادكم أن تفعل من أجلكم..." الرئيس الآن ميت، والجميع ممن كنت أعرفهم سكروا تلك الليلة.

مع حلول الوقت الذي اقتربت فيه عطلة الربيع أدركت أن علاماتي في الفصل الدراسي الثاني ستكون أسوأ بكثير مما كانت عليه في الخريف. لقد حضرت للصف نحو نصف الوقت المقرر، ولكنني نادراً ما قمت بالقراءات المقررة ومعظم تلك الأوراق الخاصة بالامتحانات والاختبارات السريعة كان يمكن أن تكون مكتوبة باللغة الماندرينية الصينية تماماً كذلك.

عدت إلى البيت لقضاء عطلة الربيع، ولم أفتح قط الكتب الدراسية التي وعدت نفسي أن أقرأها في كل يوم. ومع حلول ربيع 1964، حل لباس السباحة البكيني تماماً محل لباس السباحة من قطعة واحدة، وكانت مطاردة الفتيات والتسكع مع أصدقائي في المدرسة الثانوية أكثر إثارة بكثير جداً من الدراسة.

وفي الوقت الذي كنت مشغولاً فيه بهذه الأعمال الجادة كان أبي وأمي، مع ذلك، يواجهان أزمة. عملُ أبي كان يخفق. وكما هو الحال دائماً، ولكونه حرفياً ذا ضمير حي، كان يقضي وقتاً أطول بكثير في العمل مقابل النقود التي يأخذها. وموقع الورشة السيئ، بكل صراحة فجة، كان يؤذي أكثر فأكثر مع قيام المنافسة التجارية من المحلات التي نشأت في مواقع أقرب إلى البحيرة.

في صباح يوم من شهر نيسان/ إبريل ذاك، جلست لتناول الفطور لأفاجأ بأن أبي ما يزال موجوداً على الطاولة. وجلس هو وأمي قريبين معاً وأبي بصدد الإعلان.

"إنني سأبيع المشغل التجاري، يا توم ري. إنه لا يعمل بالطريقة التي أملّتها، ولديّ عرض لذلك."

ما زلت لم أدرك كيف كنت أنا مرتبطاً بالمشكلات المالية لأهلي. "وماذا ستفعل يا أبي؟ "وقالت أمي: "إننا نخطط للانتقال إلى أوستن، سنجد لنا مكاناً وسوف نعيش معاً"، وأضاف أبي وهو المتفائل دائماً: "هناك الكثير من الأعمال الجيدة في أوستن، يا بني."

بعد عصر ذلك اليوم فقط أدركت فعلاً ما كان يدور بخلد والدي: إذا انتقلت معهما ورجعت إلى أوستن معهما، فإن هذا سيوفر عليهما مبلغ تسعين دولاراً شهرياً لاستئجار غرفة مع الخدمة والطعام الداخلي ليبقياني في بيت دلتا أبسيلون. وماذا عن الرسوم، والكتب، ونقود المصروف وتبلغ خمسين دولاراً كانوا يرسلونها إلي شهرياً؟ إن والديّ في طريقهما إلى الإفلاس. لقد بلغت الأمور حداً من السوء جعل أمي تبيع فطائرها وكعكها مرة ثانية للمساعدة على إبقائي في الكلية. وسوف أفتقد جلسات المناقشات الجماعية مع إخواني في أواخر الليل، ولكن الإقلاع عن البيرة في ليالي المدرسة سوف يؤدي بلا شك إلى تحسين عادات دراستي. وأنا فعلاً كنت أحب طبخ أمي.

ولكن حقيقة ظروفنا الجديدة لطمتني على جانب رأسي، كما يقولون، عندما

بعت سيارتي ام جي وسيارتي شيفي المعدّلة. وبعد أن استخدمت معظم المال من أجل دفع رسوم العام التالي، كنت أملك ما يكفي في ما تبقى لأشتري سيارة بلايموث مستعملة بأربعة أبواب. وقلت في نفسي وأنا أركب السيارة بلايموث خضراء. إن ظروف الزمان قد تغيرت بالتأكيد.

في أول فصل دراسي من عامي الأول في الجامعة حصلت على درجة من معدل النقاط هو 1.2 من أصل 3.0 في نظام النقاط في جامعة تكساس، وأنجزت على رغم المصاعب درجة ب لترفع من درجاتي التي نلتها من معدل ج. ولكن تبين أن الفصل الدراسي في الربيع كان أكثر سوءاً بكثير. وبين الفتيات، والبيرة، والساعات التي أمضيتها عبثاً حول بيت دلتا أبسيلون بدل الدراسة، انتهيت في ذلك الشهر أيار/ مايو إلى معدل 0.5 لست ساعات من مستوى د، وهـ في عبء دراسي لا تحدي فيه يبلغ 12 ساعة مسجلة في الفصل.

وتأكد أدائي الجامعي المنخفض عندما استلمت الرسالة المخيفة من المسجل في شهر حزيران/ يونيو 1964، بعد أسبوعين من الامتحانات النهائية. لقد وضعتُ على قائمة الاختبار الدراسي.

وكما كان أبي قد تكهن، كان هناك عمل جيد له في أوستن. فبينما كنت خارجاً للتزلج على الماء في فايكنغ مارينا في بحيرة أوستن في أحد أيام ذلك الربيع قابلت موريس دوك، مالك حوض الزوارق وهو عضو مجلس شيوخ (سيناتور) عن الولاية. وكان نجم كرة القدم في لونغ هورن، أي تكساس، في الخمسينيات. وكان السيد/ دوك منحازاً لطلاب جامعة تكساس.

وقلت له: "إذا احتجت في أي وقت إلى ميكانيكي خبير فإن أبي على المستوى الجيد الذي يكون عليه الميكانيكيون تقريباً."

وبدأ أبي العمل لموريس دوك بعد أسبوعين.

وقبل أن يبدأ الفصل الدراسي في الخريف، انتقلت مع والدي إلى بيت صغير مستأجر في شارع روزديل آفنيو في شمال غرب أوستن، وبدأت في الواقع أدرس

مرة ثانية في ليالي الأسبوع. ولم يكن مفاجئاً أن درجاتي رجعت لتصعد وترتفع إلى معدل 1.25 بعد الامتحانات النهائية في كانون الأول/ ديسمبر، ولكنها لم تكن مرتفعة تماماً بما فيه الكفاية لترفع اسمي من قائمة "الاختبار الدراسي،" ولكني حسبت أنني أستطيع أن أخفف قليلاً وأبدأ بالاستمتاع بالحياة في الكلية من جديد. غلطة كبيرة.

في وقت متأخر من ليل يوم الخميس بعد أسابيع قليلة من دخول الفصل الدراسي في ربيع 1965، وجدت نفسي أنحني على إبريق من بيرة تكساس لون ستار في حديقة بيرة شولتز وأناقش قضايا ذات أهمية مع جاك سلايتون وجيمي سيويل.

أعلن جيمي، وهو يردد أصداء محاضراته في علم الأناسة: "أن البوذيين يقولون إن كل الواقع وهم. ربما كانوا يملكون معلومات عن شيء ما."

وقلت وأنا أملأ أقداحنا: "دعونا نشرب نخب البوذيين." وأضاف جاك، وأعتقد أنه كان يدرس علم الفلك: "المكان والزمان هما الشيء نفسه، من الناحية الرياضية."

لقد وصلنا إلى مرحلة البصيرة العميقة من الشراب في الكلية.

كرعتُ بيرتي. "حسناً، وماذا عن الذرات؟ إن الإليكترونات تدور حول النواة مثلما تدور الكواكب حول الشمس تماماً، أليس كذلك؟ وماذا لو أن... كل ذرة ملعونة في إصبعي، أو هذا القدح هي فعلاً نظام شمسي صغير..."

وقال جاك وعيناه تبرقان "وأن أحد الشباب في بار على واحد من تلك الكواكب الإليكترونية يشرب إبريقاً... أو يشرب أي جهنم، وهو ينظر إلى إصبعه، و..."

في ذلك الربيع ذهبت درجاتي إلى جهنم في سلة يدوية. وبعد أن حصلت على درجات من مستوى "و" في امتحانات نصف الفصل، توقفت عن الذهاب إلى الفصل تماماً. وحضرت امتحاناتي النهائية في شهر أيار/ مايو 1965 مؤملاً أن يكون فيها أسئلة كافية من النوع الذي يوجد فيه خيارات متعددة لتعطيني احتمالاً مقبولاً لأحصل على درجات "د"، أمل كاذب.

وفي ذلك الصيف عملت مع أبي جزءاً من الوقت في فايكنغ مارينا، في تصليح المحركات وقيادة زوارق التزلج على بحيرة أوستن، وقضيت ثلاثة آصال في الأسبوع أصر حاجيات الزبائن في أسواق هوارد ئي. بت الكبيرة (سوبر ماركت). وتركت لي هذه الأعمال كثيراً من الوقت لحضور الحفلات. ولم يكن أصدقائي وأنا محتاجين إلى أعذار كثيرة لنحتفل.

بعدئذ تسلمت رسالة أخرى من المسجل. وحتى الآن كنت قد وضعت تحت التجربة الدراسية لمدة عام. وقد أخفقت في الحصول على معدل نقاط علامات مقبول في أثناء ذلك الوقت، ولن يسمح لي بإعادة التسجيل والقبول في الجامعة طول الفصل الدراسي القادم. بعد ستة أشهر سيكون بمقدوري أن أعيد تقديم طلب التحاق. وكان الطلاب يسمون ذلك "إقراضاً"، ورأى فيه بعضهم مخاطرة عادية للحياة في الحرم الجامعي. ورأيته أنا عذراً لأخرج مع تيري مارلات وأشرب حتى أسكر.

عندما استيقظت قبل الفجر في الصباح التالي وأنا أحس بالصداع، أضأت النور، وقرأت تلك الرسالة ثانية، وخلصت إلى أن والديّ كانا يبذران أموالهما في محاولة إبقائي في المدرسة. فقد أسأت استخدام ثقتهما وعملها الشاق. وبقدر ما كان من الصعب الاعتراف بهذا الأمر، كان واضحاً أنني كنت فاسداً من فرط التدليل، وغير مركز التفكير، وغير ناضج لأحصل الكثير من الكلية.

كان يتعين على أن أقوم بالكثير من النضج.

وبينما كنت مستلقياً في فراشي أفكر، تبلورت في ذهني خطة وأخذت شكلها. فحتى لو فعلتها ورجعت إلى المدرسة في غضون ستة أشهر، فقد كان ما يزال يتعين علي أن أتظاهر بأني مهتم بدروسي. لم أبق راغباً في التظاهر بعد الآن، حول أي شيء. ثم تذكرت المسار الوظيفي الصلب المحترم في القوات الجوية لزوج ابنة خالتي الطيار جوني باودن. لم أفكر في أنني أستطيع أن أكون ضابطاً، ولكنني أستطيع أن أخدم بلادي جندياً.

في ذلك الصيف بدأت أقرأ الصحف وأشاهد أخبار التلفاز في كل ليلة. لقد أرسل الرئيس جونسون قوات مشاة البحرية إلى فيتنام وبدأ يقصف الشمال الشيوعي. ولكن عصابات الفيتكونغ لم تفهم الرسالة، ولذلك فقد بدا أن أمريكا كانت ستدفع نصيبها. وشعرت أني مستعد أن أجر حصتي من الحمل.

وإلى جانب ذلك، فإن فكرة الذهاب إلى الجانب الآخر من العالم لأقاتل من أجل بلادي كانت "بارزة" بوضوح تماماً. وستكون العسكرية على الأرجح نسخة أكثر مغامرة من التخييم والصيد، وهو ما أحببته دائماً. ومهما فعلت في الجيش فسيكون أفضل من صر الحاجيات في سوق كبير (سوبر ماركت) أو أفضل من تركيب المحركات مع أبي. كنت أرغب بالخروج إلى العالم وأعمل شيئاً ما حقيقياً. وكونك عسكرياً هو تقريباً حقيقي بقدر ما تستطيع أن تحصِّله.

كان مركز التجنيد للجيش الأمريكي في أوستن في مركز المدينة. وفي ذلك الصباح الحار من يوم الجمعة من 20 آب/ أغسطس 1965، كان رأسي ما يزال ينبض بالصداع، وفمي جافاً كالقطن من أثر خمار السكر بالبيرة، وكنت أول شاب يدخل من الباب.

وقفت حافلة الركاب الرصاصية اللون وهي تصدر صريفاً أمام مركز الاستقبال داخل البوابة الرئيسية لفورت ليونارد وود في ميسوري. وكانت الحرارة بعد ظهر ذلك اليوم من آب/ أغسطس 95 درجة فهرنهايت تقريباً، مع رطوبة تكافئها. وفي الخارج على المعبر المنحدر حملق فينا جندي غليظ الصوت يضع الكثير من الشرائط على بدلة العمل المنشّاة التي يلبسها ويضع على رأسه قبعة الدب المدخن (سموكي ذا بير). ولم يبد ودوداً معنا.

وصاح بصوت كالخوار: "هذه ليست رحلة في حديقة السيدات، أيها المستجدون، اخرجوا من الحافلة، الآن!"

كنت في هذا المقعد طوال ثلاثين ساعة، ولم أستطع الحصول على الكثير من

النوم. كنت متعباً، وجائعاً، وخائفاً قليلاً، وأحسست لأول مرة بمرارة ألم الشوق الجارف إلى البيت.

وعندما نجحنا في تشكيل خط مستقيم بشكل معقول، مشى ذلك العسكري في تلك القبعة صعوداً ونزولاً، وهو ينعم النظر فينا. وكانت مقدمة الحذاء العسكري الذي يحتذيه لامعة جداً إلى الحد الذي رأيت معه خيالي فيه وهو يخطو بجانبي.

وقال وهو ينظر شزراً من تحت طرف قبعته: "انتبهوا بعناية، وأنصتوا جيداً لأني لا أكرر نفسي. اسمي الرقيب المعلم كيتل. سوف تتذكرون اسمي لأني رقيب فصيلتكم. أتفهمون؟"

الأولاد من حولي حركوا أرجلهم. وأحد الأولاد أومأ برأسه مبتسماً. غلطة كبيرة.

وصاح كيتل: "أنا لست أمكم، ولست أباكم. وأنا بالتأكيد لست صديقتكم. جوابكم هو "نعم، يا رقيب".

"نعم. يا رقيب".

كان يتعين علينا أن نصرخ بذلك الجواب حوالي ست مرات قبل أن يرضى الرقيب كيتل.

وفي نهاية الأمر، مشينا باضطراب في صفين وجرجرنا أرجلنا إلى الشارع لنبدأ بإعدادنا حسب الإجراءات الداخلية، ومررنا بين مهاجع في الثكنة مكونة من دورين من خشب وفيها سلالم فولاذية للنجاة من الحريق. كان العشب يابساً، بنياً. والصخور البيضاء المتسخة تصطف خطاً على طول الأرصفة. وظهر لي هذا المكان وكأنه مصنع من أربعينيات 1940.

ونادى الرقيب المعلم كيتل بإيقاع الخطو محاولاً أن يجعلنا نمشي بإيقاع الخطو المنتظم. "يسار. يمين.. يو.. يسار، يمين، يسار..."

كنت أسير بشكل جيد، ولكن الشاب الذي يسير خلفي كان باستمرار يدوس على كاحلي.

شخص مزّاح في وسط الفصيلة تمتم محرفاً اسم القاعدة التي نحن فيها (فورت ليونارد وود) وقال: "مرحباً بكم في فورت لوست إن ذا وودز." أي: (مرحباً بكم في فورت المفقودين في الغابات).

ولم يكن الرقيب المعلم كيتل مسروراً: "أيها المستجدون سوف تخرسون يا فاسدون وإلا فإن كل أعجازكم عشب وأنا جزازة العشب."

ولم يعلق بعد ذلك أحد.

وتساءلت في نفسي. متى سيطعموننا ويتركوننا نذهب للنوم؟

لم أكن سعيداً بأن أكون هنا. ولكن كان يمكن أن أكون أقل سعادة بكثير لو كنت عرفت جواب ذلك السؤال.

بدلاً من الطعام والنوم، حلقنا شعرنا. شعري لم يكن سيئاً جداً، فقد توقعت أن يحلق لي حتى الصلع، ولكن الحلاق عظيم البطن ترك فعلاً زغباً على قمة رأسي. وفي مبنى الإمداد الخانق، تحركنا إلى محنة، وكنا نتوقف عند كل طاولة ليصرفوا لنا ملابس العمل، وملابس داخلية شخصية (مع ربطات خيطية على بنطلونات الملاكم القصيرة الخفاقة)، وبزة الجيش درجة أ، ومجموعة محيرة من القبعات المختلفة، والأحذية العسكرية.

وسأل الشاب الذي يصرف الأحذية مثل إنسان آلي: "رقم حذائك؟"

"تسعة، ثلاثة هـ. قدمي في الحقيقة عريضة، كذلك يلزمني أن يكون الحذاء في العرض ثلاثة هـ."

وحك العسكري تحت إبطه المتعرق على قميصه الذي كان بشكل حرف تي، ووصل بيده إلى خلفه، دون أن ينظر، إلى صندوق مليء بالأحذية العسكرية، والأزواج مربوطة معاً بالقيطان. وقال: "تسعة" وهو يلقي زوجين من الأحذية العسكرية السوداء القتالية على كوم من الملابس يملأ ذراعي.

"التالي"

لم أتحرك. "ثلاثة هـ. أليس كذلك."

"نعم... بالتأكيد. الرجل التالي."

في مهاجعنا الجديدة، كان سريري في صف من الأسرة المثبتة المزدوجة ذات الإطار الفولاذي التي تواجه المزيد من الأسرة المثبتة في الفسحة المفتوحة للزمرة.

وما كدنا نلقي بأكداسنا من الملابس العسكرية حتى كان الرقيب كيتل المتبسم يدعونا إلى "حفلة شخصية."

وتساءلت في نفسي، إن كان لديهم شطائر.هكذا فكرت.

لم تكن حفلة من ذلك النوع. وبدلاً من ذلك، أمضينا الساعات الخمس التالية ندعك المهاجع التي كانت نظيفة من قبل. والتحقت أنا بأربعة مجندين آخرين عينا لتنظيف المرحاض. كانت كراسي المراحيض اللامعة مصطفة الواحد إلى جانب الآخر، وكل حمامين يتقاسمان لفة ورق حمام، ولا يوجد عليها مقاعد، ولا حواجز. فهم يتوقعوننا أن نجلس هنا للنهاية في مكان مكشوف؟ وبدأ الشوق المبرح للبيت يصبح ألماً ملحاً ينخز مثل ألم الأسنان.

وقلت للشاب الذي كان راكعاً إلى جانبي وهو يلمّع بلاطات أرض الغرفة بخرقة. "حفلة لطيفة."

وتكلم بلهجة من الساحل الشرقي لم أكد أفهمها: "فاسدون مباشرة. كان ينبغي أن أذهب إلى 4- اف"

"ما هي 4- اف؟"

"عندما لا تستطيع أن تكون مجنداً في قرعة عسكرية."

وقلت: "أنا لم أسحب في قرعة عسكرية، أنا تطوعت."

هز رأسه وتحرك بهدوء إلى المرحاض التالي.

بعد يومين مشت فصيلتي بالخطوة السريعة في مطر الفجر، والجميع يلبسون المعطف الواقي من المطر، ويقبضون على بنادقهم على عرض صدورهم، وهو الوضع

الذين يسميه الرقيب كيتل وضع: عالياً احمل. وكانت المعاطف الواقية من المطر المرفرفة تمنع عنا المطر، ولكنها أيضاً حبست العرق في الداخل. ومع ذلك، لم يكن الحر شيئاً إذا قورن بالألم في أقدامي. ذلك الحذاء العسكري لم يكن بالتأكيد في عرضه ثلاثة هـ: كرتا قدمي كانتا مضغوطتين بشكل ضيق كأنهما في ملزمة في ورشة أبي.

وغنى الرقيب كيتل، وهو يعد إيقاع الخطو المنتظم: "كنت معتاداً أن أواعد ملكة جمال."

ورددنا "... معتاداً أن أواعد ملكة جمال"

"والآن أنام مع بندقية ام-14."

وكانت نعال أربعين يمين حذاء عسكري تضرب أسفلت الطريق المبلل. "يسار... يمين. يو يسار...اضرب يسار...ك، يمين، يسار..."

أربعون يسار حذاء عسكري تضرب الرصيف.

ربما كانت قدماي ستتخدران في غضون مدة قليلة. ليس هذا الصباح. ومع مجيء الوقت الذي مشينا بالخطو السريع إلى أرض الاستعراض ورجعنا إلى منطقة السرية، كنت أعرج عرجاً سيئاً. وعندما اصطفت الفصيلة خارج قاعة الطعام لتناول الفطور، جاء نحوي الرقيب كيتل.

وقال والمطر ينقط من قبعته: "فرانكس، اخرج من الصف."

"نعم، يا رقيب."

"عندك نوع ما من مشكلة في المشي؟"

"لا. يا رقيب."

ومال نحوي بشكل أقرب، وصار صوته أهدأ وقال: "كنت أراقبك، أيها الشاب. الطريقة التي تمشي فيها ليست طبيعية. تعال معي."

وحملق المجندون والرقيب كيتل يقودني نحو المهاجع.

وقال وهو خارج مسافة سمع الآخرين: "سوف تصاب بالتنفيط، يا بني،"

"لماذا لم تخبرني؟ أنا رقيب فصيلتك. عملي أن أجعل أدباركم البائسة مدربة لتكونوا جنوداً، وهذا لن يحدث إذا كنت لا تستطيع المشي."

وأقررت: "إنه حذائي، يا رقيب. إنه ضيق جداً، إنه يسحق قدمي، أنا بحاجة إلى حذاء أعرض."

وهز رأسه وقال: "تأخرت كثيراً على ذلك، يا فرانكس."ثم كشر وقال: "ولكن هناك طرقاً لحل المشكلة. كان عليك فقط أن تخبرني."

كانت حيلته بسيطة. انقع فردتي الحذاء بماء يغلي في حوض غسل الملابس في المهجع، ثم املأهما بورق الصحف الملفوف بشكل كرات وعلقهما في غرفة رشاش الاستحمام ليجفا، وفي أثناء الجفاف يمتط الجلد ببطء. وحصلت على يوم عمل خفيف وأنا ألبس صندلاً. وفي الصباح التالي استطعت أن أمشي بدون ألم.

ولم أكن الآن أشعر وكأن بندقيتي ام-14 عبء ثقيل، وغنيت بقوة أفضل أغاني إيقاع الخطو المنتظم.

"إذا مت في منطقة القتال...."

"... فضعوني في صندوق وأرسلوني إلى الوطن."

"يو... يسار، يمين، يسار، يمين، يسار..."

ودارت الفصيلة حول الركن إلى شارع السرية. وكنا نسير سيراً حسناً، وكان كل مجند يخطو منسجماً مع إيقاع الآخرين. ولم تؤلمني قدماي. كان ذلك ممتعاً.

وكنت أستطيع أن أشم لحم الخنزير المدهن، واللحم البقري بمرقه الرمادي بالقشدة على الخبز المحمص - لحم البقر المجفف والمدخن - الذي قدمته قاعة المطعم للفطور. كنت جائعاً. وإشارة اس او اس ،لحم البقر المجفف والمدخن، سيكون طعمها جيد اليوم.

وكان الرقيب كيتل يهرول في الخلف إلى جانب التشكيل، ولكنه يحافظ على الخطو بطريقة ما. وتفرس في صفوفنا وقال: "تبدو جيدة، الفصيلة الثالثة. بعض منكم يمكن أن يكونوا جنوداً حتى الآن."

وعندما كنت أمر عنه مهتزاً أومأ ورماني بتكشيرة سريعة.

لم أكن أحس بالحنين الجارف إلى البيت بعد ذلك.

"جاهزون على اليمين" هكذا تردد صوت ضابط السلامة على مكبر الصوت. "جاهزون على اليسار. جاهزون على خط الرمي."

تمددت منبطحاً، المرفقان على كيس رمل، أنظر من خلال منظار جهاز التسديد لبندقيتي ام-14 إلى الهدف، الذي يبعد عني مائة متر.

"عشرون طلقة. ابدأ الرمي."

ضغطت على الزناد وأخمص البندقية يضرب كتفي. هذه البندقية التي كانت من عيار 7.62 ملم هي بندقية حلف الأطلسي وهي أكبر بندقية سبق لي أن رميت بها. ولكن ارتدادها لم يكن بالسوء الذي كانت عليه بندقية أبي القديمة ريمنغتون من عيار 0.12 التي سبق لي أن رميت بها عندما كنت في سن الثامنة.

كان أصيلاً بارداً مشمساً من شهر أيلول/ سبتمبر عند سفوح تلال أوزارك. وكنت سعيداً أن أكون هناك، نقوم فعلاً بالرمي على "سلاح خفيف الوزن، يبرد بالهواء، ويعمل بالغاز، ويلقم من المخزن، ونصف آلي، ويرمى من الكتف" وسبق لنا أن سرنا فيه ورمينا به رمياً وهمياً بدون ذخيرة طوال شهر. كانت البنادق تضرب وتطلق بقوة على طول خط الرمي وفصيلتي تواجه تحدي مهارة الرماية في الجيش. وارتداد البندقية ضرب بعض الشباب بقسوة فعلاً لأنهم لم يكونوا يقبضون على حاضن البندقية بشدة كافية. وكانت الطلقات تضرب غباراً بنياً منخفضاً على حافة الهدف. وكان الرقيب كيتل ينحني على العسكر الذين كانوا يواجهون مشكلات فيرفع سبطانات بنادقهم أو يخفضها، مقدماً لهم التشجيع الهادئ.

ووقف خلفي ليراقب. تنفست شهيقاً وزفيراً بالتساوي بالطريقة التي علمنا إياها، وضغطت على الزناد "مثل عصفور." وبدت البندقية وكأنها تطلق نفسها بنفسها والكثير من ظروف الطلقات النحاسية الحارة قفزت للخارج في ضوء الشمس لتصلصل على الكوم المتنامي بجانب كيس الرمل.

وعندما رمينا العشرين طلقة ونظفنا بنادقنا بعناية، كان كيتل يراقب والمتدربون يسحبون الأهداف التي عُلمت عليها إصاباتنا. لقد نجحت في وضع كل الطلقات في الحلقات التسع على الهدف، وعدة طلقات منها كانت في الدائرة الصغير في مركز الهدف.

"أين تعلمت أن ترمي مثل ذلك، يا فرانكس؟"

"أبي علمني، يا رقيب، في مزرعة في أوكلاهوما."

"أتمنى لو أن عندنا المزيد من أبناء المزارع." تمتمها وهو يمشي متمهلاً على الصف.

عندما أخذت الفصيلة تشكيلها لتسير عائدة إلى المهاجع، جذبني الرقيب كيتل من الصفوف. "العسكري فرانكس هنا فتى نظامي يعرف الإيقاع مع ام-14، سوف ينادي بإيقاع الخطو المنتظم."

وصحت محاولاً النغمة العذبة نفسها مثل التي للرقيب المعلم كيتل "إلى الأمام سر "وبدأت الفصيلة تخطو: " يسار... يمين... يسار، يمين..."

وقال كيتل وهو يمشي ورائي على جانب الرتل: "بصوت أعلى، يا فرانكس، أعطهم شيئاً يمشون عليه."

وغنيت: "نمشي عبر الغابة عند طلوع النهار"

والفصيلة تغني الجواب.

"وقف في طريقي تمساح كبير ضخم..." صحت، وأنا فخور بأنني أقود الجند حتى وهم وحدة صغيرة بحجم فصيلة تدريب أساسي.

سار تشكيلنا على طول الطريق، والتحقت به فصائل أخرى عائدة من ميادين الرمي. وغنيت أنا كل أغنية إيقاع عرفتها. ثم إن شباباً في الصفوف غنوا أغانيهم، وأنا أتابع الخطوة: "يسار، يمين، يسار، يمين."

طوال الشهر الأول من التدريب الأساسي، كان ما يزال المجندون الجدد في مهجعي يتحدثون إنجليزيتهم المحلية في نيويورك، أو السفانا، أو تينيسي، أو غيتو شيكاغو. وصرت أدرك أن هناك حياة ذكية شرق الميسيسيبي، ولكنهم تكلموا بشكل غريب. كنا الآن نتعلم أن نتكلم كالجيش.

وأشرق الرقيب كيتل بابتسامة مثل أب فخور.

وعندما اقتربنا من برج الماء الذي يعلّم حدود لواء التدريب، سمعت أول نغمات حلوة بالبوق لدقة العودة إلى الثكنة على مكبرات الصوت، وهي المراسم التي تؤشر على نهاية يوم العمل. وبدون أن يطلب مني كيتل أصدرت أمراً: "فصيلة، قف. قدم سلاحك."

وفي اتفاق تام، قدمنا التحية، وأصابعنا الجامدة تلامس حافة خوذنا قليلاً.

وعبر أرض الاستعراض، كان حرس العلم ينزل العلم عن السارية الطويلة. وبقينا نؤدي التحية حتى انتهت دقة العودة إلى الثكنة. لقد أحببت هذه المراسم. ومثل دقة الإيقاظ في الصباح ودقة إطفاء الأنوار في الليل، فإن دقة العودة إلى الثكنة تعطي لليوم شكلاً، وإحساساً بالقصد. وهذا بالضبط هو ما كان ينقصني في حياتي الكسولة وأنا طالب في أوستن. ففي كل أرجاء هذا الموقع المديد بلا انتظام، كان العسكر يقفون وحدهم أو في تشكيل، يحيون العلم، وهم عسكر أفراد بأكمام ملساء مثلنا، وضباط صف ثابتون مثل الرقيب كيتل، وضباط معينون برتب نقباء، ورواد، ومقدمين. وربما حتى الجنرال قائد فورت ليونارد وود. ذلك هو ما يفعله الجنود، أدركت ذلك ودقة البوق تتلاشى. وأنا صرت جندياً.

ولكننا بالتأكيد لم نصبح زمرة من الإخوة. فكثيرون من بعض البيض

المحافظين كانوا حذرين من الشباب السود، والعكس بالعكس. ولكن كان علينا أن نتآلف. فعندما تجلس على صف من كراسي المراحيض في الصباح، وشباب من كل لون تقريباً تستطيع أن تتخيلهم يصطفون حولك، فإن المرء يتعلم أن يقتطع لزملائه العسكر بعض السعة.

معظم الناس على الأقل يتعلمون هذا الدرس. والطباخون في قاعة المطعم كانوا قصة أخرى. كنا دائماً نندفع مستعجلين ونحن نسير على طول صف الطعام حاملين صوانينا من الفولاذ الذي لا يصدأ. بعض الجنود الذين يقدمون الطعام كانوا عسكراً من الدرجة الأولى وكانوا بكل فخر يضعون الشريطة الصفراء الواحدة لرتبتهم على أكمام بدلات عملهم. وكان واحد منهم ألماً حقيقياً في الخاصرة، ويزعجنا دائماً ويطلب أن "تحرك يا فاسد...(*) على طول."

في وقت غداء، قرر أن يمارس سلطته علي وأنا أنتظر وعاء الهامبرغر على طاولة التسخين ليعاد ملؤه.

"هيه، يا دب(**)... أنت توقف الصف. هذا ليس مطبخ أمك."

تحركت للأمام وكومت بطاطا مطحونة ومرقاً على خبزتي الفارغة من الهامبرغر. وكما كانت عادتي.لم أتلفظ بكلمة. وانتظرت.

ذلك المساء، تصادف أني كنت قرب قاعة المطعم عندما جاء خارجاً. فمشيت إليه وضربته بقوة بقبضتي، على وجهه مباشرة فشققت شفته.

وقلت له وهو يمسح الدم عن وجهه: "يحتمل أن يكون هناك في حياتك بعض الناس تستطيع أن تفسد... معهم، ولكنني لست واحداً منهم. لا تقل أبداً أي شيء وأنا أسير على طول صف الطعام ثانية."

(*) كلام يتنافى مع الآداب العامة فاقتضى الحذف، وقد استخدم الكاتب الكثير من الألفاظ السوقية والبذيئة، وقد وضعت بديلاً لها أقل سوءاً أو كتبت نصف الكلمة، أو وضعت ثلاث نقاط دليل الحذف. والإعلام الأمريكي منع استخدام ما سماها الألفاظ السبعة القذرة، وباستثناء قليل استخدمها الكاتب كلها.

(**) مقطع واحد من لفظة بذيئة والنقط دليل الحذف.

لقد قررت أن كوني جندياً، لا يعني أن يكون علي أن يحاصرني التافهون.

في الأسبوع الأخير من التدريب الأساسي تلقيت الأوامر بأن أقدم نفسي إلى فورت ديفينز في ماساشوسيتس، لأتدرب لعمل محلل رموز سرية، مكسِّر رموز، في وكالة أمن الجيش، وهي قسم من فرع الاستخبارات العسكرية. كشافة المواهب للاستخبارات العسكرية جاؤوا إلى فورت ليونارد وود، يبحثون عن مجندين حصلوا على علامات جيدة في اختبارات القدرات والقابليات. ربما كنت طالباً سيئاً في أوستن، ولكنني لم أكن غبياً. وفي الحقيقة، لقد نجحت في أن أُراكم أفضل علامات في اللواء الذي تلقيت فيه تدريبي.

كان الرقيب القادم من وكالة أمن الجيش مقنعاً جداً. وقال: "لا أستطيع أن أخبرك الكثير عن العمل إلى أن نكمل تصريحك الأمني. ولكنه عمل يشتمل على بعض أكثر استخبارات أمريكا حساسية."

وفكرت، يا للمفاجأة، جيمس بوند، العميل 0007 مشروبات المارتيني تُهز، لا تحرك(*). قراب مسدس في الكتف تحت سترتي للغداء. وربما سوف أغوي الجاسوسات الروسيات الجميلات.

كانت هذه صفقة أفضل بكثير من مطاردة طالبات التعليم المختلط والتلصص في أفلام سينما السيارات.

بعد التخرج من التدريب الأساسي، وأنا أقف طويلاً وقد وضعت شارة رامٍ خبير على بزتي العسكرية، وبعد أن ذهبت إلى البيت في أوستن لقضاء عيد الشكر هناك، قدت سيارتي من نوع فورد فالكون الحمراء طراز 1963 المكشوفة إلى نيويورك، في الطريق إلى فورت ديفينز، قرب بوسطن. وكان معي فرِد ويبستر، صديقي الذي اختير أيضاً للاستخبارات العسكرية، وشاركني السواقة والمصاريف. ونظراً إلى أننا سنتسلم راتبينا عن شهر كانون الأول/ ديسمبر عند وصولنا، فقد قررنا أن نصرف

(*) هذا من كلام جيمس بوند في أفلامه.

كل نقودنا في المدينة قبل أن نتوجه إلى ماسّاشوسيتس، مع الاحتفاظ ببعض الدولارات للبنزين وللهامبرغر.

صرفنا فعلاً. وبعد أن دفعنا للفندق في الشارع 38 شرقاً مقدماً، بقي معنا حوالي ستين دولاراً. ذهبنا إلى كل بقعة سياحية في المدينة وفي كل يوم بعد العصر حوالي الخامسة ارتدنا البارات. وفي يومنا الأخير وضعت آخر أربعة دولارات معي لشطيرتين كبيرتين للغداء من البسطرما الجاهزة، مع المزيد من المخللات الأصلية لي، وأربع زجاجات بيرة من نوع شيفر. وكان فرد يحمل نقدنا الاحتياطي، وهو خمسة دولارات وثلاثة فئة دولار واحد، ملفوفة بقوة في الجيب الأمامي من الجينز الذي يلبسه.

عند الأمم المتحدة، وقفنا في صف من أجل جولة بعد الظهر للجمعية العامة.

وقال فرد فجأة: "يجب أن أجد مرحاضاً. بسرعة." ربما كان السبب البسطرما المبهرة.

بعد عشر دقائق جاء في الممر، وكان يبدو شاحباً.

"أعاني من إسهال سيئ."

عند زاوية الشارع 42 والشارع الأول، لمس فرد بنطلونه الجينز وقال "ياإلهي". "نقودي ضاعت. لابد أنها سقطت في مقعد ذلك المرحاض."

ركضنا عائدين إلى الأمم المتحدة، ولكن لم نكن محظوظين في العثور على النقد الضائع.

وعندما كنا نركب في المصعد إلى بهو الفندق في صباح اليوم التالي،لم نكن نعرف ماذا نفعل بهذه الورطة.

وقلت: "سيتعين علينا أن نبقي السيارة هنا ونسافر مع من يرضى بالوقوف من السائقين."

حدق فرد في كيسيَ المتاع الثقيلين وقال: "سيكون مشياً طويلاً."

ونظر إلينا المشغل الأسود للمصعد: "هل نشلتم، أيها الشابان؟" وقلت: "فقدنا نقودنا، يا سيدي."

كان الرجل في عمر يناهز عمر أبي، ويحتمل أنه كان من المحاربين القدماء في الحرب العالمية الثانية. وعندما أوقف المصعد عند البهو، سلّم فرد ورقة خمسة دولارات. وقال: "لقد مشيت في مثل ما أنتم فيه، يا شباب. وذلك سيوفر لكم كل البنزين."

تذكرت ما علمني إياه خالي بوب عندما كنا نصلح تلك البيوت في ميدلاند. "لا يهم من أي لون هو جلد الناس، يا تومي ري. إن قلوبهم هي التي تهم."

وحالما استلمنا الراتب أرسلت بالبريد خمسة دولارات إلى ذلك الرجل المشغل للمصعد الذي أنقذنا لنصل سالمين.

اكتشفت في الحال أن التدريب لأكون محلل رموز لم يشتمل على كؤوس شراب المارتيني، أو مسدسات تحت الذراع، أو سترات الغداء. ولم يكن يوجد في فورت ديفينز طاولات مغامرة بأوراق اللعب (بكارات)، ولا جاسوسات روسيات جميلات لإغوائهن.

كانت مدرسة وكالة أمن الجيش تعمل على مدار الساعة لتواجه الطلب من كل أنحاء العالم على اختصاصين في التقاط واعتراض الإرسال اللاسلكي ومحللي رموز. فإلى جانب الحرب الباردة التي تتقد نارها عبر أوروبا وشمال آسيا، كانت هناك حرب ساخنة تغلي وتفور في فيتنام. وكان الجيش يدفع الطلاب إلى التدريب على مدار نوبتين مضاعفتين مدة كل منهما اثنتا عشرة ساعة.

كنت في نوبة الليالي. وكان فصلي يتناول العشاء في قاعة المطعم، ثم نقدم أنفسنا للمدرسة في الساعة 1800. وكنا نتناول "الغداء" في منتصف الليل، ثم نتلقى المزيد من الدروس في الفصول إلى الساعة 0600، وبعد الفطور نذهب إلى النوم. هذا الجدول المائل غير المنسجم استغرق وقتاً للتعود عليه، ولكنني وجدت أن مادة الموضوع فاتنة.

تعلمنا أن مكالمات الإرسال اللاسلكي العسكرية المرمّزة تشتمل عادة على مفتاح، على مجموعة سرية من الأرقام أو الحروف التي يمتلكها كل من المرسل والمستقبل، وهي التي تحول كتل الأرقام التي تبدو بلا معنى إلى رسائل وكلمات مقروءة. وبدون المفتاح، كما علمنا مدربونا، فإنه من العسير للغاية أن نكسر الرمز.

وبدا الأمر لنا، ونحن جالسون في الفصل في الأيام الأولى من الدورة، كما لو أننا كنا نواجه تحدياً مستحيلاً. ولكن رئيس الرقباء، ذا الوجه الذي يشبه البومة والذي كان يعلمنا الدورة التمهيدية، أكد لنا أننا سنكون قادرين على كسر أي رمز سبق أن ابتدع إذا تحلينا بالصبر واتبعنا الإجراءات الصحيحة.

وشرح لنا أن كل لغة عرفت "معدلات تكرار الحدوث" لأي حرف مفترض. وكلما زاد تخصص الكلمات والتعابير التي ألفت منها تلك الرسائل، مثل الأوامر العسكرية والتوجيهات، زادت زيادة أكبر فرصة تحديد كلمات من خلال تكرار استعمال الحروف.

وأكببت على طاولتي في الفصل الزائد التدفئة، أنظر متجهماً إلى مذكرات الدروس المطبوعة بالنسخ. كيف يمكن لنا أن نتعرف ولو مجرد تعرف بالحروف بدون مفتاح الترميز؟

قال لنا المدرب "الاحتمال الرياضي."

النص المرمّز استبدل الأرقام بالحروف. وعلى سبيل المثال فإن 7246362469 مثلث عشرة حروف، ربما في كلمتين، وربما في كلمة واحدة، وربما في كلمة ونصف. والقصد من الرمز هو قلب ما هو مفهوم إلى هذرمة غير مفهومة.

وكانت مهمتنا بوصفنا محللي رموز أن نقرر ما قد تكون تلك الحروف بالروسية، وهي اللغة التي استخدمناها لنتعلم مهنتنا. ومن الطبيعي، أننا لا نستطيع أن نصل إلى تحليل باستخدام مجموعتين فقط تتكون كل منهما من خمسة أرقام. ولكن جمال هذا الأسلوب تضمن تحليل مئات من هذه المجموعات ذات الأرقام

الخمسة، ونحن نبحث عن أنماط تكرار الحدوث. ولم نكن نملك الحواسيب لتجعل واجبنا أسهل، لم نملك إلا آلات حاسبة باليد من نوع بورو تستخدم للجمع ويمكن استخدامها للقسمة والضرب أيضاً. وجميعنا نملك الكثير من أقلام الرصاص المبرية برؤوس حادة.

وفي شهر شباط/ فبراير 1966، كان أحد تمارين الفصل يتضمن تحليل نص مرمّز لنقرر إن كان الرقم 6 أو 2 قد ظهر مرات أكثر من بقية الأرقام في قسم من مجموعات النص. وكان المدرب في تلك الليلة الرقيب الأقدم، وهو أمريكي -إيرلندي عظيم البطن اسمه- ريللي، وكان قد أخبرنا أن هذه الأرقام "ربما" تمثل حرف علة روسي شائع أو حرفاً صامتاً وذلك من مثل ئي... (ee) أو ياه... (Yah)، كما في كلمة (Army) ... وبعد الكثير من المناقشات في الفصل والمحاولات المحبطة في التحليل اكتشفنا أخيراً أن تتابع الرقم 98462 كان فعلاً هو تهجئة تلك الكلمة.

ولكن لدينا صفحات أخرى من النص تنتظر التحليل. وكنت، وأنا أنحني على الأعمدة المطبوعة من كتل النص الرقمية في الرسالة المشكلة، أبحث عن تكرارات أخرى. وتأكدت مثل جهنم، من أنني اكتشفت التتابع 79395 مكرراً في ثلاثة مواقع. وعرفت أنا الآن الرقم 9 كان آه (ah) في هذا الرمز.

وتمتمت "... شيء ما، آه، شيء ما، آه، مرة ثانية" وأنا أعلك قلمي الرصاص. ضربت معجمي العسكري الروسي بخفة وفتحته، وفجأة برزت كلمة كتيبة-batta)... (lion وهكذا فالرقم 7 يجب أن يكون ب (beh) 6 والرقم 3 هو ت (T, teh).

ومال نحوي وساعدني الشاب الذي كان يجلس على المقعد المجاور لي، وهو مجند مدعو لخدمة العلم اسمه فيلدمان، وكان قد درس وتخصص في الرياضيات في كلية شرقية ما. وأكدنا معاً ذلك التحليل. ثم إن فيلدمان قفز إلى الأمام مؤكداً ارتباطات الرقم -الحرف پي- ، بي b، أو، إتش.

وبعناية قمت بطباعة جوابنا وسلمت ورقة العمل إلى الرقيب ريللي.

"ممتاز، فرانكس! الطريق للمتابعة، يا فيلدمان. أنتما أيها الرجلان وجدتما الكلمة الصحيحة المؤلفة من ثمانية حروف بناء فقط على أول خمسة حروف." وضحك وقال، "توقعت ذلك منك، يا فيلدمان. أما العسكري فرانكس، فمن المؤكد أنك من تكساس؟"

"نعم، يا رقيب. من ميدلاند. أنا فخور بتكساس."

"حسنا، يجب أن تكون كذلك، أيها الشاب."

ولكن الجلوس في الفصل طوال الليل لم يكن يشعرني بأنه حياة عسكرية. لقد افتقدت تمارين النظام المنضم بالبندقية والمسير في تشكيلات. ولذلك فعندما سمعت أن مركز تدريب وكالة أمن الجيش ومدرسة حرس الشرف لديهم فرص لوظائف، تطوعت.

كان العريف سام لونغ هو ضابط الصف المسؤول عن الجهاز الذي كان يملك سمعة بوصفه وحدة من أفضل وحدات المراسم تنظيماً في الساحل الشرقي. وقفت بجانب ميدان المدرسة للتدريب البدني يومين بعد العصر لمراقبة الرجال وهم يتدربون، وبذلك عرفت أنه كان يجب علي أن أبدو حاد الوعي عندما أقدم نفسي إلى سام لونغ.

قال: "أنت طويل،" وهو يخرج من خلف طاولته في مكتبه الصغير ليصافحني وببطء بحثت عيونه بحثاً كاملاً اللمعان البراق على حذائي العادي، وثنية الكي على بنطالي، والعقدة في ربطة عنقي. وكنت قد حلقت شعري ذلك الصباح، وحلقت ذقني بعناية قبل أقل من ساعة من المقابلة. "ذلك جيد. فالجنود في حرس الشرف يجب أن يبرزوا في الاستعراض أو في تقديم العلم في الملعب. لقد قمت بالكثير من المسير؟"

"أنا فعلاً أحببت تمارين النظام المنضم في التدريب الأساسي، أيها العريف." كان سام لونغ يضع شريطين فقط على أكمام بزته العسكرية الخضراء المفصلة على

جسمه، ولكن أسلوبه الهادئ والواثق ولّد الاحترام، وهو مفتاح النجاح في عمل ضابط الصف. وبالنسبة إلى العسكر الصغار المتطوعين مثلي، كان ضابط الصف هو أهم شخص في سلسلة القيادة. فضابط الصف، سواء أكان عريفاً أم رقيباً، كان هو الذي يحدد تفاصيل الأعمال، ويصدر تصاريح نهاية الأسبوع.

وقال: "حسناً، يا فرانكس، سنرى ماذا نستطيع أن نعمل معك."

كانت نعال أحذيتنا العسكرية تضرب بِتُؤَدة على الخشب القاسي من حديقة بوسطن. لقد أمرنا العريف لونغ بأن نمشي "بخفة" في هذا الملعب القديم الذي يصدر أصداء مع المسير. كان المتحمسون لفريق بوسطن لكرة السلة الكلتكس معروفون بوصفهم جماعة من المشاغبين ولكنهم كانوا وطنيين، فهم بالتأكيد غنوا النشيد الوطني بأسلوب قوي وبحماسة عندما قدمنا العلم. ولكن اللعب الآن في النصف من الوقت في لعبة مهمة في آخر الموسم، وكان الكلتكس أقل بإحدى عشرة نقطة عن فريق نيويورك لكرة السلة الكنكس. لقد كنت آمل بالتأكيد، وأنا أقبض على الأخمص اللامع من بندقيتي ام-14، أن يكون المشجعون للكلتكس الذين يبلغ عددهم 18000، من ذوي الياقات الزرقاء في المزاج المناسب لاستعراض بياننا العملي.

انقسمنا إلى صفين في كل واحد ستة ونفذنا العبور الدقيق لمسير العرض الخاص، وكل واحد منا يسقط بندقيته، ثم يقبض على سلاح نظيره وهو معلق في الهواء ويخطفه إلى الأعلى ليضعه في الوضع عالياً احمل، وتبع ذلك تبادل قذف البندقية. ثم كررنا ذلك التمرين مرتين، في أثناء مسيرنا إلى الخلف ببط، ثم انفصل الصفان في النهاية بمسافة تساوى تقريباً نصف رقعة الملعب. ولإنهاء البيان العملي أدينا تنويعات خيالية للتحية التقليدية للملكة آن في مناورة التماوج من زيادة السرعة، صف للأعلى، وصف للأسفل، وبنادقنا اللامعة تغزل في أشعة الضوء المسلطة عليها. وانتهى البيان العملي والفريق راكع على ركبة واحدة، والرؤوس محنية.

وجن جنون الجمهور، فهتف، وصفق، وضرب الأرض بأقدامه.

وكنت فخوراً أن أكون جندياً.

كانت ثكنة حرس الشرف مكاناً للعرض، ونظيفة مثل مستشفى، وكل سطح فيها يتلألأ. وكان كل من العريف لونغ، وقوتنا العليا، وهو رقيب أول صلب كبير السن اسمه سكاغليوتي، يتأكدان من أن المبنى كان دائماً جاهزاً للتفتيش بالقفاز الأبيض.

وفي صباح يوم سبت مطير من ذلك الربيع، جاء إلى الثكنة ضابط برتبة ملازم قلما كنا نراه من قبل، وكان سام في هذه الأثناء يبين لي كيف أعيد تركيب بندقية من بنادق ام-16 الجديدة وأنا مربوط العينين.

وصاح الضابط الشاب، وهو يقذف حلقة مفاتيح إلى سام: "هيه، يا عريف، أرسل شخصاً ليقود سيارتي إلى مركز المدينة ويحضر مادة تلميع الأرض التي طلبناها."

انتهيت من السلاح وأزلت العصبة على عيوني. وسلمني سام المفاتيح." عندي لك مهمة، يا فرانكس."

وعندما كنت أقود سيارة الملازم من نوع فورد راجعاً عبر البوابة الأمامية ومعي علبة كبيرة من مادة تلميع الأرض تجلس على كرسي الراكب، أدى الشرطي العسكري عند مركز الحرس الآجري الأحمر تحية منعشة.

ذهلت، ورددت التحية. ولم أدرك إلا بعد أن غيرت السرعة في فاصل المسننات صعوداً على التلة إلى الثكنة أن الشرطي العسكري قد رأى الملصق الأزرق والأبيض الخاص بالضابط والذي كان موجوداً على الزجاج الأمامي وافترض أنني كنت الملازم.

استمتعت بالشعور بأن رقيباً قوياً من الشرطة العسكرية يؤدي لي التحية. وفي أثناء الشهور التسعة لي في الجيش كان اتصالي ضئيلاً جداً مع الضباط، ولكني

أدركت أنك عندما تحصل على النجوم مثبتة على كتفيك تكون مؤهلاً للاحترام.

وقلت في مرآة السيارة ولها: "ذلك هو ما أتحدث عنه، الاحترام."

تقدمت بطلبي إلى مدرسة الضباط المرشحين في الأسابيع الأخيرة من تدريب محلل الرموز. كانت هناك فرص لشواغر للمتقدمين المتطوعين الشباب المؤهلين في مدرسة الضباط المرشحين للمدفعية أو للمشاة. وحسبت أنني قد يتعين علي أن أمشي أقل في المدفعية.

وقال سام لونغ إن آخر عائق في العملية سيكون مقابلة مع الرقيب الأول سكاغليوتي. و"سكاغ" سبق له أن قاتل في ألمانيا وفي كوريا. وكان أعزب، وعاش وحيداً في حجرة المدربين في الطابق العلوي من الثكنة، وكان معروفاً عنه أنه يتناول مشروباً أو اثنين في نادي ضباط الصف بعد ساعات العمل الواجب.

كنت ألبس أفضل بزة مفصلة لي، ووصلت مبكراً خمس دقائق قبل الموعد المحدد لي وهو 0730 في ذلك الثلاثاء من شهر حزيران/ يونيو. وأبقاني واقفاً عند طاولته وهو يقرأ ببطء ملفي الشخصي الرقيق، وعلامات اختباري، ودرجات الصف.

وقال لي أخيراً وهو ينظر رافعاً عينه عن الأوراق: "لدي بعض الأسئلة يا عسكري."

وطوال الدقائق العشر التي تلت استجوبني سكاغ عن الخلفية العائلية، وعن تعليمي المدني، وعن رأيي في الجيش.

وسألني وهو يقفل الملف بحدة: "لماذا تريد أن تكون ضابطاً، يا فرانكس؟"

وكنت مستعداً لهذا السؤال: "أعتقد أنني أستطيع أن أتعلم أن أقود الجند، يا رقيب أول. ولذلك أريد أن أكتشف إن كنت من معدن الضباط."

وعبس سكاغ، واستدار بعيداً في كرسيه المتحرك، وهز رأسه بامتعاض. "حسناً، طيب، يا فرانكس. بالنسبة إلي أنا موافق إذا كنت تريد أن تذهب إلى مدرسة

الضباط المرشحين. " ثم استدار ليواجهني. "سأقول لك هذا القدر. إنك ترتكب غلطة كبيرة. لن تكون ضابطاً تساوي شيئاً. ولكنك إذا ثابرت في ذلك، فإنك قد تصل إلى رقيب في يوم ما." وقبل أن أستطيع أن أجيب، فتل كرسيه ثانية، وبذلك كنت أواجه ظهره.

"والآن اخرج من هنا."

وتمتمت من بين أسنان تكز: "شكراً لك، يا رقيب أول."

وكنت فعلاً أحس بالإساءة والغضب، وأنا أنزل بخطوات واسعة على درج الثكنة. من يظن نفسه ذلك الرجل المسن الحقير؟ فعلى الرغم من كل شيء، درست سنتين في الكلية. وكنت من بين أفضل الطلاب في صفي في الترميز. والشباب في هذه الوحدة معجبون بي. ومن أين له أن يتجرأ ليقول إنني يجب أن أحدد طموحي بأن أصير رقيباً؟

وبقيت غاضباً طوال أسابيع. كبرياء الشاب في أعماقي أصيب بأذى نفسي. بعد ذلك، وأنا أقود سيارتي إلى البيت في أوستن في إجازة قبل أن أقدم نفسي إلى مدرسة الضباط المرشحين في فورت سيل في أوكلاهوما، أدركت أن الرقيب الأول سكاغليوتي قد بذل لي مجاملة عظيمة. لقد كان دائماً مشجعاً لي، وعندما رآني أساعد العسكري الجديد في الثكنة على ترتيب سلاحه أو ملابسه قال: "أنت فعّال، يا فرانكس، ولست قوالاً فقط." في ذهنه، كان الرقباء يعملون بالمشاركة الفعالة مع الجند، وظن أنني سأكون جيداً في ذلك.

ووعدت نفسي أن أتذكر ذلك إذا حدث وحصلت على التعيين ضابطاً.

أوقفت سيارتي في المنطقة الإسفلتية الحارة وسحبت كيس متاعي تحت القوس الفولاذية التي تعلوها لافتة تقرأ، "ثكنة روبنسون، مدرسة الضباط المرشحين للمدفعية في جيش الولايات المتحدة." كان يوم السبت، 20 آب/أغسطس 1966، وهو عام بالضبط مر بعد أن تطوعت في العسكرية. وكنت قد تصورت أن الوصول في

نهاية الأسبوع يعطيني بعض الوقت الهادئ لأستقر في المكان قبل أن يبدأ واجب الأسبوع. تصور سيئ.

لم يكن هناك شيء هادئ بشأن فورت سيل، في أوكلاهوما .كانت تمتد عبر سفوح التلال من جبال ويتشيتا، وكان الموقع يدق ويدوي بقصف مدافع الهاوتزر والقذائف المتفجرة على مدار الساعة، سبعة أيام في الأسبوع.

وأسبوع العمل الواجب للمرشحين الضباط الجدد للمدفعية لا يتضمن يوم عطلة.

"الجندي الأول فرانكس يقدم نفسه للالتحاق كما أُمِر، سيدي" أعلنت ذلك وأنا أحيي الملازم الأول خلف الطاولة وأسلمه أوراقي. كنت فخوراً بالشريط الوحيد على كُمّيّ قميصي الكاكي. على الأقل لم يكن عليّ أن أقول "الجندي فرانكس" بعد الآن. وحذائي اللامع البراق كان كالمرآة، وبزتي منشاة بشكل ثابت جميل.

لم يكد الملازم يلقي نظرة على أوراق الأوامر الخاصة بي حتى قال بلهجة مستخفة "مرشح فرانكس، لم تبق بعد اليوم الجندي الأول. أنت في شكل حياة أخرى تماماً، مرشح. وواجبي أن أخبرك أن المرشحين من طبقة أخفض هم في الحقيقة شكل حياة منخفضة جداً في هذه المنظمة. هل تفهمني، يا مرشح فرانكس؟"

"نعم، سيدي."

"جيد. لأنك الآن ستبين عملياً ذلك الفهم. سوف ترفع كيس متاعك على ظهرك، وتسير خارجاً إلى مسيل تصريف الدفق المفاجئ للماء ذلك، وتنفذ في اتجاه اليسار، وتزحف منخفضاً إلى مهجعك. المبنى 3306."

"نعم سيدي." مذاقي الأول من مدرسة الضباط المرشحين.

همهمت عبر الحرارة نزولاً إلى مسيل التصريف المنخفض وأنا أحمل على ظهري كيس متاعي الذي يزن سبعين رطلاً، وكنت أشعر أني ممتن للرقيب كيتل

الذي أخذ الوقت اللازم ليعلم فصيلته كيف تزحف زحفاً منخفضاً بدون أن تتلف مرافقها. وكانت الحيلة هي أن تسند وزنك على رؤوس أصابع قدميك وعلى العضلات المشدودة لساعديك، متلوياً مثل اليُسروع الصوفي. فالعملية لم تكن في الحقيقة مؤلمة، ولكنها بالتأكيد اخترقت الاعتزاز بالذات لشاب من حرس الشرف. وذلك، طبعاً، كان القصد من التمرين.

الأسابيع الأولى من الأشهر الستة في دورة المدفعية في مدرسة الضباط المرشحين مزجت كل الصعوبات البدنية في التدريب الأساسي: التدريب البدني في الساعة 0545، جري خمسة أميال، تمارين ضغط "تصحيحية" والحفلات الشخصية كل يوم، وتحديات في الفصل الدراسي تجعل مدرسة الترميز تبدو مثل المرحلة الدراسية الأولى.

كان هناك 120 مرشحاً في صفي مقسمون إلى ست زمر. وعشنا في مهاجع خشبية قديمة من الحرب العالمية الثانية، بدون تكييف هواء، وبدون مراوح. وعلى الأقل كان هناك مقاعد للمراحيض. وجرينا كل صباح، ونظفنا المهاجع، ووقفنا للتفتيش، وذهبنا بالخطوة السريعة إلى الفصول، واندفعنا عبر خط الطعام، وازدردنا طعامنا، ودرسنا. ستة أيام في الأسبوع. وبعد تفتيش السبت الذي كان يقوم به دائماً نقيب أو رائد يمطرنا بوابل من الأسئلة، كنا نقضي بقية نهاية الأسبوع في الدراسة.

والعِلمُ القديم الذي تعلمناه عن المدفعية اشتمل على عدد من العناصر المعقدة: كل مدفع في سجل جرد مدفعية الميدان وعلم القذائف الفردي الخاص به، وأنواع المقذوفات، والصمامات، إضافة إلى خصائص الأرض، والطبغرافية، ومسح ميدان المعركة، وحشوات الانفجار، وعلم المعادن، وتمرنا كذلك على نظام الاتصالات الصارم الذي يخص "مهام الرمي،" وهو الذي يتضمن الأمر بقذائف المدفعية لتضرب العدو في الوقت الذي تتجنب فيه القوات الصديقة والمدنيين.

في عصر اليوم الثالث من ذلك الأسبوع الأول الحار المربك، ذهبت بمفرزتي بالخطوة السريعة إلى ميدان الرمي لمراقبة سرية (بطارية) مدفعية هاوتزر عيار 105 ملم في كتيبة تدريب. وفي أثناء الهرولة على الطريق، شعرنا بالرصيف يهتز قبل أن نسمع بالفعل هدير المدافع الضاربة.

وقفت المدافع الستة في بطارية هاوتزر ام-101 "الأنابيب" في حفر رمي منخفضة، دائرية محاطة بأكياس الرمي، السبطانات الثقيلة للمدافع محمولة على هيكل مدولب، و"مساند" للمدفع من عوارض فولاذية بشكل 7 ممدودة لتخميد الارتداد القوي. وحشونا سدادات الآذان وراقبنا، ونحن معجبون، وسدنة المدفع السبعة يتابعون الأوامر الدقيقة التي يقوم الملازم الآمر بإلقائها عليهم من خلال الهاتف الميداني من مركز توجيه النيران الموجود في خيمة خضراء باهتة محاطة بهوائيات الإرسال اللاسلكي.

وصاح: "بطارية اضبط." وقف السدنة جاهزين لمهمة رمي.

"قنبلة شديدة الانفجار." سيكون المقذوف المختار شديد الانفجار.

"فرزة أشعة اكس يانكي." وهذا كان النوع الدقيق من القنبلة شديدة الانفجار التي يجب أن تطلق.

"حشوة خمسة." خمس حشوات بارود في الظرف النحاسي الأسطواني.

"صمامة سريعة." القنبلة سوف تجهز بصمامة لتنفجر عند الإصابة.

"المركز طلقة واحدة." قام رماة المدفعين الأوسطين بفتح كتل المغلاق اللامعة والمرتبطة بمفصّلات، وحشا المالئون بالمدك القنابل المحددة، والمجهزة بالحشوات بشكل صحيح والمزودة بالصمامة لتستقر في مكانها في المدفع.

وضاع أمر "ارم" في عصف فرقعة انطلقت وسدنة المدفع يسحبون حبلتهم لفتح النار.

وانبعثت من فوهة السبطانات دفقات من اللهب، ساطعة حتى في ضوء شمس

الصيف. وانحرفت الرائحة اللاذعة النفاذة من بارود الكوردايت إلى المدرج المكشوف الذي كنا نجلس عليه.

وانتظرنا، وآذننا ترن، لمدة دقيقة تقريباً بينما انطلقت المقذوفات الفولاذية من زنة 35 رطلاً عبر مساراتها المنحنية حتى اصطدمت بدون أن نراها في ميدان الرمي الغربي، على بعد 11.000 متر.

وأعلن مدربنا منادياً: "أيها المرشحون، هذه مدفعية الميدان، ملك المعركة."

إنها أدوات مهنتي الجديدة.

جلست على مقعد من كتان ثلاثي الأرجل بدون مسند ظهر، لوحة الخريطة في حضني، ومنظار الميدان يتدلى ثقيلاً من عنقي. بينما اصطف من حولي بقية المرشحين في زمرتي على الحافة المفروشة بالحصباء من مركز الرصد الذي تهب عليه نسمات من الهواء. كان التاريخ 4 تشرين الثاني/ نوفمبر، وهو صباح أول مهمة لنا في الرمي الحي. كنا على التلة، وهي سلسلة صخرية من أشجار العرار والبلوط القصيرة الكثيفة كانت تشرف على واد متدرج وعلى الأرض العالية إلى الغرب. وكنا كلنا منفعلين، ومعظمنا كان عصبياً. وعلى بعد خمسة أميال خلفنا كانت تنتظر بطارية هاوتزر عيار 105 ملم لتتلقى الأوامر التي نبعثها بالإرسال اللاسلكي إلى مركز توجيه النيران.

في هذا اليوم سوف يعمل كل واحد منا بصفته راصداً أمامياً، وهو عمل من أكثر الواجبات حيوية وإلحاحاً من أعمال مدفعية الميدان. لقد أمضينا أسابيع في الفصول نتعلم النظرية التي ترتكز عليها نيران المدفعية الدقيقة والفعالة. فهمنا الأجزاء المتحركة من المدافع، ودور كل عضو من أعضاء السدنة، وطاقة الحشوات الدافعة، والسرعة الابتدائية ووزن المقذوفات... وفهمنا كل المئات من الحقائق الأخرى المعقدة المتصلة برمي المدافع الكبيرة في القتال.

وفوق كل ذلك، تعلمنا الرمي الدقيق الذي اعتمد على البيانات الأساسية

الحاسمة. إذا عرفنا الموقع الدقيق للبطارية، ووضعنا هذا الموقع بدقة على لوحات رمينا، وإذا وضعنا بدقة نقطة على الخريطة تحدد موقع الهدف، فعندئذ ستوجه بطارية الرمي القنبلة بدقة. وستكون المسؤولية علينا بصفتنا راصدين أماميين أن نحدد إحداثيات الهدف تلك بكل دقة.

وكانت منطقة إصابة الهدف تمتد عبر الوادي تحتنا. وهناك هياكل سيارات مدهونة بالأبيض والأصفر والأحمر ملقاة على الأرض في مواقع عشوائية. وكان هناك برج قصير من حجارة كلسيه ملطخة بخطوط بالأزرق والأبيض على بعد حوالي 1200 متر إلى اليسار وكان هو المعلم الأرضي الواضح الوحيد. ولكننا درسنا هذه الأرض طوال أيام، وكانت الدراسة من خلال مناظير إحكام رمي المدفعية المعايرة وعلى الخرائط المقسمة إلى تربيعات 100.000 متر مربع. واستذكر كل واحد منا عن ظهر قلب الارتفاع فوق مستوى البحر والإحداثيات الدقيقة لكل قمة تل ومرتفع يمكن رؤيته من مركز الرصد هذا.

لقد توقفنا عن النظر إلى المنظر الطبيعي كما ينظر إليه المدنيون. نحن الآن نرى العالم من حولنا بالبديهة من حيث هو إحداثيات من ستة أرقام على خرائط عسكرية أو على لوحات رمي. إن منظورنا البصري يقوم تلقائياً بقياس المسافات من اليسار (غرباً) ولليمين (شرقاً) ومن الأسفل (جنوباً) وإلى الأعلى (شمالا). الناس العاديون رأوا صفوفاً من المهاجع، أو السوق العسكري، أو الملعب الصغير للبيسبول. أما نحن فنرى إحداثيات الهدف.

لقد أدركت أن إعادة الضبط العقلي هذه كانت ضرورة وقيمة بوصفها تكييفاً لنا مع الموقف الذي نحن فيه. فإذا تم كل شيء على ما يرام، فسوف نتخرج برتبة ملازم ثان في مدفعية الميدان في شهر شباط/ فبراير 1967. وبعد شهور قليلة لاحقة سيكون كل واحد منا عاملاً في الخدمة راصداً أمامياً في فيتنام، وهو يطلب مهام رمي حقيقية على أهداف معادية حقيقية. ذلك كان واقعنا. وكافحنا طوال كل يوم تدريبي، ونحن دائماً ينقصنا النوم، ونركض من فصل إلى فصل، نزدرد طعامنا

في قاعة المطعم، بدون وقت لدينا للتفكير في أي شيء غير الاختبار التالي في علم المدفعية أو تفتيش الثكنة. وكان هناك دائماً صوت المدافع.

وعندما كان عندي لحظة لأفكر في المستقبل، كنت أرى نفسي في فيتنام، في قاعدة مغبرة للإسناد الناري أو خارجاً مع الجند في حقل من حقول شتلات الرز في الظلام. لقد ركضت، ونمت، وأكلت، ودرست في تلال أوكلاهوما. ولكن جزءاً مني كان قد صار من قبل في فيتنام.

كان مدربنا هو الملازم الأول راوسون، وهو شاب مفرط في الطول والنحافة، وكان ما يزال يحتفظ بلون الجلد الأسمر الغامق الذي اكتسبه من خدمته عاماً راصد أمامياً في المرتفعات الوسطى في فيتنام. لقد علَّم وطلب في بيانين عمليين مهام رمي في ذلك الصباح، وكان يعمل بصبر من خلال الإجراءات ليتأكد من أننا جميعنا نفهم. لقد أرادنا أن نعتاد شخيراً هائلاً يتمزق عبر السماء عندما تمر فوق الرؤوس قنبلة حية من عيار 105 ملم لتنفجر مع عصف الألعاب النارية ليوم الاستقلال في الرابع من تموز/ يوليو على هدف يبعد 1000 متر في عمق الوادي.

قال: "حسناً." وهو يخطو خطوات واسعة على طول صفنا من الكراسي، وقد أمسك بيده اليمنى منظار إحكام الرمي المعطوب الخاص به. وأمسك بوصلة في يده اليسرى.

"مرشح فرانكس، مهمة الرمي التالية لك."

أحسست بوهج من التأثر. بدءُ العرض. "نعم سيدي."

وقف الملازم أول راوسون إلى جانبي مؤشراً إلى الوادي تحتنا.

"يا مرشح، من البرج الأزرق القديم..." ورفع منظاره، وفعلت أنا الشيء نفسه. "نزولاً من خط الأفق ست ملات..."

مناظيرنا فيها مقاييس معايرة محفورة في فرزات صغيرة معلمة بوحدات "الملاّت" وهو المقياس الذي يستخدمه رجال المدفعية لتعليم الإحداثيات. البوصلات

المدنية مقسمة إلى 360 درجة. أما بوصلاتنا فمقسمة إلى 6400 ملاً، وهي توفر دقة أكبر بكثير.

وكررت: "ست ملات نزولاً من خط الأفق، سيدي."

وقال: "اليمين خمسة- اثنان ملاً، هناك جسم سيارة صفراء كبيرة."

وكررت وصف هدفه، متذكراً أن "خمسة- اثنان" كانت هي طريقة رجال المدفعية في القول خمسة وعشرين.

وتابع: "مزيد من التحديد، بكونه على بعد ملين إلى يسار الصخرة البيضاء المستطيلة. جند العدو في العراء."

مرة أخرى أعدت تحديده.

"هل تتعرف بالهدف، يا مرشح فرانكس؟"

كان زملائي في الفصل ينصتون ويشاهدون باهتمام. ضبطت دولاب التركيز لمنظاري، درست جانب التلة البعيدة وهو يلمع لمعاناً خفيفاً مقابل مقياس المِل المفرَّز. ورأيت الهدف.

"سيدي، المرشح فرانكس. الهدف معروف."

"لا بأس، يا مرشح. علّم إحداثيات هدفك واكتب أمر مهمتك للرمي."

جلست على كرسي وخطفت اللوحة التي عليها خريطتي، والمقسمة إلى تربيعات معلمة بأرقام وبحروف. وباستخدام مربع إحداثيات بلاستيكي شفاف،حددت موقع الهدف وغرزت دبوساً أحمر بطبعة، أي، "حربة"، في خريطتي. ثم عاودت مرة أخرى تدقيق حسابي وبعناية قمت بطبع الأمر على الكراسة الخاصة للكتابة.

كان الملازم راوسون يدرس عملي بصمت، ويتأكد من أنني لا أرتكب أخطاء جسيمة كارثية. فقنابل الهاوتزر التي أنا على وشك إصدار الأمر بإطلاقها سوف تمر فوق الرؤوس، وكانت المسؤولية تقع على الملازم ليتأكد من أنني لم أطلق طلقة يمكن أن تضرب مركز رصدنا.

وأعطاني التلفون اليدوي للإرسال اللاسلكي: "مرشح فرانكس، أرسل مهمتك للرمي."

وقلت: رد ليغ(ساق أحمر) واحد -ثمانية، "وأنا أتأكد من أني فتحت زر الميكرفون. "هذا رد ليغ اثنان- أربعة. مهمة رمي، حوّل."

"أرسل مهمتك للرمي، اثنان- أربعة، حوّل." وكان الصوت من مركز توجيه النيران رزيناً.

وفتحت الميكرفون ثانية. "اكس تي 182 478." كان هذا هو مربع التربيعة وإحداثيات الهدف بستة أرقام التي علمتها. "جند العدو في العراء."

مركز توجيه النيران أكد إحداثياتي وأكد طبيعة الهدف. وسوف تطلق البطارية طلقة ضبط واحدة، مستخدمة قنبلة شديدة الانفجار مع صمامة انفجار في رأس القذيفة.

وقلت وأنا أقرأ من كراستي: "سوف أضبط الرمي."

وقال مركز توجيه الرمي: "ارم، حوّل."

وجف فمي، وكان علي أن أبلع قبل أن أؤكد أن طلقتي المدفعية الحية الأولى كانت في طريقها. وكررت: "أطلقت. خارج."

"تناثر"، واتصل الآن مركز توجيه النيران. سوف تنفجر الطلقة في غضون خمس ثوان.

وأوقفت نَفَسِي عن الانقباض للأسفل تحت خوذتي الفولاذية عندما يتمزق المقذوف القادم من دون أن يكون مرئياً فوق مركز الرصد. ووضعت السيارة الهدف في مركز منظاري بشكل متعادل مرض. وانفجرت القنبلة مع وميض وغيمة من الدخان الرمادي على بعد 200 متر شمالاً و100 متر غرباً من الهدف، ممطرة الأرض بوابل من الشظايا الحارة من القنبلة المنشار.

وشعرت أن الملازم راوسون متزناً خلفي. ناديت: "يمين 100. انقص 400."

وانفجرت القنبلة التالية جنوب الهدف.

وأمرت مركز توجيه النيران: "أضف 0200"

"ارم..."

"تناثر..."

هذه الطلقة أصابت الهدف، واستطعت في الواقع أن أرى هيكل السيارة ينشق وشظايا القنابل المنثار تضرب في المعدن.

وأمرت: "صمامة زمنية. ارم للتأثير."

وراقبت برضا والقنابل تنفجر حول الهدف مثل الألعاب النارية الجامحة في الختام. ولو كان هيكل السيارة تلك تشكيلاً معادياً لكان في "عالم من الأذى، "كما عبر عنها، الملازم راوسون.

واجتزت أول اختبار لي في الرمي الحي، وأحسست إحساساً جيداً نحو ذلك. وأعتقد أن كل الزمرة أحست بذلك.

ولكن الملازم راوسون كان بخيلاً بالثناء. فقد قال: "مرضي، يا مرشح." ثم التفت إلى الزمرة. "تلك كانت أبسط مهمة رمي ممكنة. لديكم الكثير من المعالم، وفي النهار، والرؤية ممتازة، والطقس رائع. والمرشح فرانكس هنا أخذ وقته على مهله." وجلست قلقاً على كرسيٍّ.

واستمر الملازم راوسون: "تخيلوا ظروفاً مختلفة، في الليل. أمطار المونسون غزيرة إلى درجة لا تستطيعون معها أن تروا 100 متر. وغابة فوقها ثلاث ظلل. وأنتم مع فصيلة مشاة وقعت قبل قليل في كمين. العدو قريب من ثلاثة جوانب. الآن حاولوا أن تعلّموا إحداثيات هدفكم وأن تأمروا بمهمة رمي دقيقة."

وتركنا ندرس تلك الصورة المتجهمة القاسية لدقيقة. ثم نادى المرشح التالي.

تخرجت ملازماً ثانياً في مدفعية الميدان في 14 شباط/ فبراير 1967، في يوم

الحب (فالينتينو). أبي لبس بدلة، وأمي لبست قبعة جديدة وقفازات بيضاء. كانا فخورين وأنا كنت كذلك.

وبطريقة ما، فأنا لم أنجح فقط من خلال مدرسة الضباط المرشحين وليس علي إلا نقطة سلبية واحدة في سجلي، وهي فشل واحد في تفتيش الأسلحة، بل لقد كانت علاماتي الأكاديمية وفي المهارات الامتهانية في أعلى 10 بالمائة.

وذلك ما جعلني "خريجاً عسكرياً متميزاً" مؤهلاً للتعيين النظامي في الجيش، وهو الطريق إلى التقدم في السلك الوظيفي المستقبلي. وقررت ضد تقديم التزام بأن أصير عسكريا محترفاً لمدى الحياة، وأنا شاب في العشرين. سيكون علي أن أذهب إلى فيتنام لمدة عام، ذلك كان مؤكداً. وعندما أعود إلى الوطن- عندما وليس إذا- سيكون قد بقى لي ثمانية عشر شهراً فقط لأخدمها. وخططت أن أعود إلى الكلية، لأحصل على درجة علمية، وأكسب لي عملاً جيداً. وأبعد من ذلك، ربما أجد فتاة جميلة وأتزوج.

وفي هذه الأثناء كان علي أن أتعلم ما يعني أن تكون ضابطاً. وذلك استغرق بعضاً من التعلم.

عينت مؤقتاً ضابطاً تنفيذياً مساعداً لبطارية هاوتزر عيار 105ملم في فورت سيل، وفيها سأخدم إلى أن يتم إرسالي إلى فيتنام. لقد تعلمت الكثير عن كيفية الرمي بالمدافع وضبط النيران. ولكنني لم أعرف الكثير عن قيادة الجند. وطوال عام بصفتي رجلاً متطوعاً، اعتدت على إطاعة الأوامر البسيطة الدقيقة. وبصفتي مرشحاً ضابطاً، فإن الأوامر التي تلقيتها كانت في الغالب تُلقى صراخاً وكانت مدعمة بالانضباط التصحيحي، بتمارين الضغط أو حتى بالمشي القسري صعوداً ونزولاً إلى التل ام بي -4، مع حمل المتاع الميداني الكامل. ذلك كان الإطار المرجعي لقيادتي.

كان أحد واجباتي بصفتي ضابطاً تنفيذياً مساعداً أن أخدم بدور ضابط المطعم. وكانت أول مسؤولية تلقى علي وأنا ملازم هي مسؤولية قاعة مطعمنا. ومع

ذكرياتي عن الطباخين المستبدين في صف الطعام في فورت ليونارد وود، بدأت بفأل لا يبشر بخير مع الجنود الشباب في بطارية ألفا. كانت التعليمات تنص على أن أرضية المطبخ الإسمنتية ومشمع أرضية منطقة الطعام يجب أن تمسح بممسحة قماشية وتمسح بممسحة مطاطية وتجفف في وقت لا يتجاوز أربعين دقيقة بعد نهاية كل وجبة. وكنت أصاب بنوبات غضب كبيرة عندما لا يتم إنجاز ذلك.

ولكن رقيب المطعم، وهو رجل أسود هادئ اسمه إيفانز، له طرقه الخاصة. فقد شرح لي بصبر أن هناك الكثير من أعمال إعداد الطعام لوجبة الغداء مباشرة بعد الفطور. ولذلك كان تنظيف الأرض بوقت مبكراً جداً هدراً للوقت. ولم أكن مهتماً بالأعذار. ولكنني لم أكن أحدث أي تقدم بالصراخ بالأوامر وبتكديس المزيد من الواجبات على الطهاة والمساعدين المكلفين أصلاً بأعمال مرهقة. لقد كانوا يعرفون عن أداء واجباتهم أكثر مما كنت أعرف.

كان قائد بطاريتي نقيباً متمرساً اسمه إد ڤيرنون، وقد أسدى إلى نصيحة جيدة. قال لي: "يا توم، إن الجند سيعملون معك بشكل أفضل كثيراً إذا كنت أنت ستعمل معهم بشكل أفضل قليلاً."

ابتلعت بعضاً من ذاتي. وفي الصباح التالي طلبت إلى الرقيب من الدرجة الأولى إيڤانز أن يتبع "ترتيبه المعتاد" تماماً بينما أنا كنت أراقب. من الطبيعي أنه استغل وقته ووقت رجاله أفضل استغلال. وكل أرضيات قاعة الطعام كانت تمسح وتجفف قبل عشر دقائق وزيادة من فتح الأبواب للغداء.

وسألت: "كيف تعتقد أننا نستطيع أن نحسن الأمور حولنا هنا، يا رقيب؟"

وقال: "حسناً يا سيدي. بعض الشباب يحبون سماع الموسيقى عندما يتناولون الطعام. وبالنسبة إليهم فإن إحضارهم لأجهزة الراديو الخاصة بهم هو أمر ضد التعليمات."

كان ذلك أمراً سهلاً. جهزت جهاز راديو إضافياً من إحدى غرف الترفيه في الثكنة مع سماعات. ولدينا الآن موسيقى مع كل وجبة. ولكن الحل لم يكن بالبساطة

التي ظننتها. فالشباب السود أحبوا موسيقى الروح الشعبية وأبناء الريف أحبوا موسيقى ناشفيل الريفية، وأبناء المدن أحبوا الروك أند رول. ولذلك رتبت دوران الموسيقى بشكل أعطى كل واحد وصلة موسيقى من موسيقاه المفضلة مرة في اليوم.

كانت هذه الفترة وكأنها فوق الواقع، ومثل العيش تقريباً في حجرة مسدودة الهواء. وواحدا بعد الآخر تسلم زملاء صفي في مدرسة الضباط المرشحين أوامرهم إلى فيتنام وذهبوا. وكنت أعرف أنها مسألة أسابيع أو شهور قبل أن أتبعهم. ولذلك اغتنمت كل فرصة استطعت فيها أن أخرج البطارية وأشحذ مهاراتي بصفتي راصداً أمامياً وضابطاً لتوجيه النيران.

كنت أشترك في الإيجار في بيت صغير في مركز المدينة لوتون، على بعد ميل من البوابة الرئيسية، مع زميلي في الفصل في مدرسة الضباط المرشحين الملازم غلين ستيوارت. لقد نشأ في وولترز القريبة، في أوكلاهوما، وكان يعرف المنطقة معرفة جيدة. كان ذلك الأمر جيداً بالنسبة إلي. أما أنا فكنت قد استثمرت الكثير من شيك راتبي في تسديد الكثير منه في دفعات شهرية لأولدز 442 صفراء جديدة، وهي واحدة من أسرع السيارات التي أخرجتها ديترويت. وفي معظم الليالي كنا نجول على البارات وعلى سينما السيارات نستكشف ونبحث عن فتيات. وكنا أحياناً محظوظين، وفي بعض الأحيان لا نوفق. وكان يوجد توتر في الجو. فالحرب تزداد سخونة في كل يوم. والشعر أطول، والموسيقى أعلى. كنت أريد أن أعتصر من الحياة أكثر ما أستطيع قبل أن أتوجه إلى جنوب شرق آسيا.

في ليلة يوم من أيام الجمعة من شهر آذار/ مارس تجولنا، غلين وأنا، في بارات مركز المدينة بدون أي نجاح ثم توجهنا إلى البيت في ساعة معقولة. كان علينا تفتيش كتيبة في الصباح، وكان يجب علي أن أكون في قاعة المطعم قبل الفجر.

وقال غلين وهو يقف عند البيت: "هيه، سيارة مَن تلك التي في ممر السيارات؟"

كان هناك سيارة بنية ستيشن في مقدمة مرآبنا الصغير. وكانت هناك أضواء في غرفة الجلوس في بيتنا.

وعلى أريكتنا القديمة المغطاة بنسيج المربعات جلست فتاتان جميلتان فعلاً. تشربان الشراب الكحولي البوربون والكوكا، وتشاهدان فيلم المنتقمون على تلفازنا.

وقال غلين: "سوزي. ماذا تفعلان هنا؟" وكان غلين قد عرف سوزي باسّل منذ المدرسة الثانوية.

وابتسمت: "جئنا نبحث عن مشروب، وكان الباب مفتوحاً، فعزمنا أنفسنا."

كانت الفتاة الأخرى طويلة ونحيفة، وشعرها بني مقصوص قصة جميلة، وعليها كنزة جميلة، ولها عينان باردتان، كانت جميلة. كنا نبحث عن النساء طوال الليل. وكن هنا في غرفة الجلوس في بيتنا بانتظارنا. ولكوني شاباً مسيحياً نشأت نشأة حسنة، فقد رفعت بصري إلى السماء. شكراً لك، أيها المسيح.

كان اسمها كاثي كارلي. وكانت هي وسوزي زميلتين في الفصل في كلية كاميرون الإعدادية. ولاحظت فوراً أن كاثي كانت تضع دبوس الأخوة على كنزتها. وذلك تحد، حسب ما فكرت.

وقلت بعد المصافحة: "حسناً، أرى أنكما قد شربتما شيئاً قبل مجيئنا، ولذلك فسيكون علينا حسب ظني أن نلتحق بكما."

وقالت كاثي وهي تبتسم مشاغبة: "حظ سعيد. لقد كان علينا أن نحفر عبر ذلك المجلى المليء بالصحون المتسخة لنجد كوبين لنغسلهما."

وسألتها: "أتعتقدين أنكما تستطيعان أن تجدا كوبين آخرين؟"

والتحقت بي في المطبخ الضيق. "أنتم الشباب لن تربحوا بالتأكيد ختم الموافقة على التدبير المنزلي الجيد."

كانت في الثامنة عشرة من عمرها فقط، وتبين أنها "تقريباً في التاسعة عشرة." ولكنها كانت تتحلى بنضج هادئ في شخصيتها، مع روح سريعة من الدعابة.

ونجحت في الحصول على رقم هاتفها قبل أن تغادرا. ولكن كاثي حذرتني: "والدي هو الدكتور أوتو كارلي، طبيب أسنان. وهو صارم، ولا يسمح لي بالمواعيد مع الجنود."

وقلت بوجه جاد لا تعابير فيه: "أنا ملازم."

و سمح لي الدكتور كارلي أن أصطحب كاثي لنخرج إلى شرب كوكا في سينما وينز، وهي سينما سيارات في يوم الجمعة التالي. ولكن كان هناك قواعد للعبة. كان يجب عليها أن تكون في البيت مع الساعة التاسعة مساء. ودام موعدنا الأول خمسة وأربعين دقيقة بالضبط. ولكنه سمح لي أن أصطحبها ثانية في الأسبوع التالي.

تحدثنا طويلاً في الهاتف. وبسرعة معقولة صار والد كاثي وأمها غينيل، يناديانني "توم" ويدعونني إلى العشاء. والقصة التي اتفقت عليها أنا وكاثي هي أن الشاب توم فرانكس "ترك" جامعة تكساس في أوستن ليصير ضابطاً في الجيش. وفي هذه المرحلة لم نرغب بالاعتراف بأنني طردت من الجامعة والتحقت بالجيش جندياً.

بعد أول ليلة جمعة في شهر آذار/ مارس تلك، توقفت عن التجول في البارات. وأعادت كاثي دبوس الأخوَّة. ودفعت فكرة فيتنام إلى أبعد ما كنت أستطيع. ومضى الربيع، وكنت أرى كاثي في كل ليلة تقريباً. ثم جاء الصيف. وذهبنا إلى التزلج على الماء، وسبحنا، وقضينا كل لحظة فراغ معاً. وعرفت الآن ما الذي يعنيه أن تقع في الحب.

في شهر آب/أغسطس، حضرت دورة في حرب الغابات في بناما. وعندما رجعت في أواخر أيلول/ سبتمبر كنت أخف وزناً بعشرين رطلاً، وعلي ندوب مستديرة زهرية من العلق تعلو رسغيّ وكاحليّ، مع وجود الفطريات بين أصابع أقدامي. وكان أول شيء فعلته هو أني ذهبت إلى اتحاد الائتمان واقترضت خمسمائة دولار لأشتري خاتم خطوبة ماسي لكاثي، التي كانت الآن في السنة

الثانية في جامعة ولاية أوكلاهوما في ستلووتر. وقدت سيارتي الأولدز شمالاً بسرعة مائة ميل في الساعة تقريباً ووصلت الحرم الجامعي قبل موعد الغداء بالضبط في يوم خميس. وكانت كاثي في طريقها إلى الفصل. ولكنني أقنعتها أن تركب وتذهب معي في السيارة بدل الذهاب إلى الدرس. ومع مجيء الوقت الذي أنزلتها فيه عائدة عند بيت جمعية الطالبات لتغير ملابسها للعشاء، كانت تلبس تلك الماسة التي اشتريتها لها.

كانت الأوامر الصادرة لي بسيطة: "قدم نفسك إلى فرقة المشاة التاسعة، جمهورية فيتنام." في موعد لا يتجاوز 20 تشرين الأول / أكتوبر 1967. لم أكن أعرف الكثير عن فرقة المشاة التاسعة. ولم أكن أعرف في الحقيقة الكثير عن جمهورية فيتنام، لم أكن أعرف أكثر مما سمعته في جلسات الحوار في الثكنة وما شاهدته في أخبار التلفاز. ولكنني بالتأكيد كنت أعرف أنني ألتحق بوحدة مقاتلة بصفتي راصداً أمامياً.

وخولني الجيش أن أطير من عنوان إجازتي في أوستن، في تكساس، إلى أوكلاند في كاليفورنيا، وأقدم نفسي لرحلة طيران مستأجرة إلى فيتنام في قاعدة ترافيس للقوات الجوية.

وقدت سيارتي مع كاثي لتقابل أهلي، ثم رجعنا إلى ستلووتر. وكلانا بكى ونحن نقول الوداع. ولكننا ضحكنا أيضاً في نهاية الأسبوع تلك أيضاً. وعند العودة إلى أوستن، أدركت أنني كنت تكسانياً لم ير شيئاً تقريباً من الغرب الأمريكي. وقررت أن أستفيد من تذكرتي للطائرة إلى أوكلاند فأقبضها نقداً وآخذ جولة سريعة في حافلات الركاب (خطوط شركة غريهاوند) عبر نيومكسيكو، وأريزونا، ونيفادا، ثم عبر سيرا العليا من رينو.

ومضى الأسبوع الأخير في أوستن سريعاً، وقامت أمي بتنشية وكي كل بزاتي العسكرية الكاكي. وقامت حتى بكي ملابسي الداخلية. وأمضيت بضعة ليال في

بيت دلتا أبسيلون أو في الشرب في حديقة شولتز للبيرة مع أصدقائي. نكتنا كثيراً واستمتعنا ببيرتنا. ولكن الحزن كان سارياً في الأعماق.

استأذن أبي من عمله صباح يوم الثلاثاء ذلك لكي يستطيع هو وأمي أن يقودا السيارة ويوصلاني إلى محطة حافلات الركاب غريهاوند.

لم يكن هناك الكثير لنقوله ونحن ننتظر الحافلة. كنا نحن الثلاثة نختنق. وأخيرا طقطق مكبر الصوت، معلنا تحرك حافلة الانتقال إلى مدينة فيونكس. وفي الخارج على المعبر قبلت أمي وعانقت أبي.

وسألته: "هل عندك أي نصيحة؟"

كان يحاول أن يبتسم، ولكن الدموع كانت تسيل على وجهه الذي علته خطوط عميقة. وقال أخيراً: "حسناً، امدد لهم يد العون، يا بني."

ترعرع أبي بين الفلاحين وبين العاملين الأشداء في حقول الزيت، وعمل بجد طوال حياته في حقول القطن، وعلى تجهيزات الحفر، وعمل فعلاً في كل نوع من مرآب السيارات كان هناك. وفي عالمه، كانت "اليد" الجيدة هي الرجل الذي كان يكسب راتبه، والرجل الذي يحصل على حصته، والرجل الذي يقوم بواجبه.

قبلت وجه أبي. "بالتأكيد سأحاول، يا أبي."

بعد ستة أيام و11000 ميل، هبطت طائرة البوينغ 707 المستأجرة للخطوط الجوية كونتيننتال في الليل فوق بحر الصين الجنوبي نحو قاعدة بيان هوا الجوية. وملت نحو النافذة الباردة، المتسخة، محاولاً أن أحصل على نظرة خاطفة من الأرض المظلمة تحتنا. كانت هناك دوائر ضئيلة من الضوء منتشرة بين بقع واسعة من السواد الفارغ. وبعيداً إلى اليسار كانت الغيوم مضاءة من الأسفل: إنه توهج مدينة سايغون.

كنت متعباً، وأعاني من الصداع نتيجة لشراب ويسكي بوربون المعروف باسم وايلد تيركي الذي شربته في قاعدة كلارك فيلد الجوية في أثناء توقفنا للتزود بالوقود في الفلبين. وكنت أكثر من عصبي قليلاً.

ثم جاء القبطان إلى مكبر الصوت وأعلن: "سوف نحاول القيام باقترابنا الأخير في خلال دقيقتين. ولذلك سأطلب منكم جميعاً أن تنزلوا الأغطية المظللة للنوافذ. لا نريد أي ضوء خارج من الطائرة عندما نهبط."

وعندما كنت أغلق الغطاء البلاستيكي القاسي للنافذة، رأيت وهج مظلة بيضاء شاحبة يفرقع بصمت على بعد مسافة. وبعد ثانية، رأيت خيطاً من الطلقات الخطاطة البرتقالية كالأنشوطة ينزل من السماء عبر وهج الضوء ثم ابتلعه الظلام. نوع ما من رمي المدفعية على العدو، على ما ظننت.

كان تومي فرانكس ذاهباً إلى الحرب.

الفصل الثالث

المحنة

بنه بهوك، فيتنام الجنوبية

تشرين الأول/أكتوبر 1967

بعض المحاربين المتمرسين في حرب فيتنام كانوا يمتلكون بعد النظر الكافي الذي جعلهم يحتفظون بيوميات عن خبراتهم، وهو ما سمح لهم بأن يتتبعوا كل التفاصيل في نوبة عملهم من بعد عقود من الزمن.

وكثيرون آخرون، كما أظن، كانوا مثلي. فأنا لم أستطيع أن أجلس اليوم ومعي تقويم وخريطة دلتا الميكونغ لأستخرج تسلسلاً زمنياً دقيقاً للشهور التي قضيتها في القتال. لا أملك إلا التواريخ الموجودة على الجوائز التي نلتها وعلى تعداد إشادات الخدمة لكي تحرك ذكرياتي، ومعها كومة رقيقة من الرسائل التي كنت قد كتبتها إلى كاثي.

ولكنني أمتلك ذكرياتي نفسها. زمن خدمتي في فيتنام قد يكون مر مشوشاً، ولكن الصور التي استبقيتها تبرز مثل جزر في مستنقع. لقد كنت أمزح وأقول إنني ذهبت إلى فيتنام مستجداً في الثانية والعشرين ورجعت إلى الوطن بعد اثني عشر شهراً محارباً قديماً في الخمسين من عمره. بعض الناس يضحك من هذا. ولكن الشباب الذين خدموا هناك ليسوا من الذين يضحكون.

عندما كنت أركب في الشاحنة المفتوحة متجهاً إلى دلتا الميكونغ، كان ذلك الخميس الحارق من شهر تشرين الأول/أكتوبر يوماً مخيفاً. كنت واحداً من اثني عشر ضابطاً بديلاً نجلس على اثنين ونصف من المقاعد القاسية. لقد تسلقنا السيارة في بيركات، مقر قيادة فرقة المشاة التاسعة، على بعد خمسين كيلومتراً شمال شرق سايغون. ومرت الشاحنة من قرب قاعدة الإمدادات الأمريكية الضخمة

في لونغ بنه، على جسر الميناء الجديد، وعبر جمهرة من الدراجات النارية، وسيارات ثلاثية الدواليب تجر عربة مغطاة للركاب، وبين علب الصفيح البيضاء والزرقاء من سيارات تكسي رينو في سايغون.

وفي جنوب المدينة التحقنا بقافلة كانت محروسة من مقدمتها ومؤخرتها بناقلات جنود مدرعة م 113- "مجنزرات"- وتحمل كل واحدة منها رشاشاً من عيار 0.50. وامتدت حقول شتلات الرز إلى الأفق المسطح، وهي تنضج من الأخضر إلى الذهبي. وكانت القنوات الطينية تقسم حقول الشتلات مثل خطوط التربيع، وكانت الهضبات التي تظهر من وقت إلى آخر من الأرض العالية مكسوة بشكل كثيف بأشجار الخيزران وأشجار الغابة القصيرة الكثيفة. وعلى طول جانب الطريق، كان يسير الفلاحون في ملابس فضفاضة سوداء وقبعات هرمية وكانوا يديرون لنا ظهورهم أو يلوحون لنا تلقائياً، ووجوههم فارغة من التعبير. وكان واحد من جاموس الماء يجر عربة محملة بقصب السكر نحونا، بينما اندفعت حافلة دراجة بخارية منخفضة من نوع لامبريتا مزدحمة بالنساء والأطفال ودخلت في غيمة الغبار المنبعثة من سياراتنا.

كان مُقدِّم الإيجاز لنا في بيركات قد أخبرنا أن هؤلاء الفلاحين "أساسياً حياديون". لا يقفون إلى جانب حكومة جمهورية فيتنام ولا إلى جانب الفيتكونغ الشيوعيين وجيش فيتنام الشمالية. وشرح لنا النقيب: "إنهم يعيشون وحسب، يحاولون البقاء، ونحن نسيطر على القرى في أثناء النهار. وفي الليل تتسلمها الفيتكونغ وجيش فيتنام الشمالية."

قرب معسكر قاعدة اللواء الثالث في تان آن، مررنا على مجنزرة محترقة جردها القرويون للحصول على نفاية معدنية. وكان ولدان صغيران، يرتديان قميصين ممزقين من شكل حرف تي، يقفان في الظل الخفيف للحطام، ويرفعان للأعلى علب بيرة من نوع بابست بلو ريبون ورزماً من دخان مارلبورو. وفكرت، هذا هو ما تبدو عليه الحرب، متعجباً متسائلاً ما الذي أصاب المجنزرة. فدرعها الألمنيوم

كان يستطيع إيقاف نيران الأسلحة الصغيرة وشظايا القنابل المنثارية، ولكن درعها انطوى مثل الورق المقوى عندما أصيب بقذيفة ب-40 من القنابل المدفوعة صاروخياً (ار بي جي)، التي كان يستخدمها العدو في الكمائن. كنا نجلس على ظهر هذه الشاحنة ذات المقعدين والنصف، وليس لدينا أي درع مطلقاً، ما عدا ستراتنا الثقيلة المضادة للرصاص.

واهتزت الشاحنة باستمرار خلف مجنزرة الطليعة، محافظة على مسافة القافلة وهي خمسة وعشرون متراً. لم أكن أعرف أيها كان الأسوأ: الشمس، أو الغبار البرتقالي، أو غاز عادم الديزل الخانق.كنت مستحراً، وعطشان، ومتعباً، وعصبياً. كان هذا مختلفاً اختلافاً كبيراً عن أول يوم في التدريب الأساسي.

وتحولنا عن الطريق المعبد لنسير على مسار مخدّد يقطع بين المزيد من حقول شتلات الرز، وتوقفنا أخيراً عند مجموعة من الخيام المتهدلة وأكواخ الألواح الخشبية المغطاة في أعلاها بألواح من المعدن الصدئ. وكانت حدود نطاق المعسكر معلمة بسياج عالٍ من الأسلاك الشائكة، والخيام والأكواخ محاطة بأكداس بارتفاع الكتف من أكياس الرمل الخضراء الباهتة اللون. وكانت لفات أسلاك الكونسرتينا تتسلسل من الأعمدة الهندسية وتشكل الدفاع الخارجي ضد المتسللين. وعندما وقفت في حوض الشاحنة، رأيت أن القاعدة كانت في الحقيقة مجمعين، واحداً واسعاً، وواحداً صغيراً، وهما مفصولان بقرية من البيوت الخشبية الرثة المظللة بقليل من أشجار النخيل والموز. كانت تلك هي ما سماها العسكر "قُريّة"، وهي قرية تابعة تقوم بالقرب من قاعدة رمي وتوفر العمالة اليومية وفتيات الأكواخ اللواتي ينظفن أكواخ الثكنة ويغسلن الملابس العسكرية. وبدا لي كل الترتيب العام مثل مواقع العمل في حقول النفط المستعجلة في أوكلاهوما الشرقية التي سبق أن رأيتها في صور أبي.

كانت الكتيبة الخامسة (الآلية)، الستون المشاة، هي بيتي الجديد. فقد عينت راصداً أمامياً متقدماً مع بطارية ب براڤو، الكتيبة الثانية، المدفعية الرابعة، والتي

كانت توفر المساندة بالنيران لكل من الوحدتين 5 - 60 بستة مدافع هاوتزر من عيار 105 ملم. وعند وصولي إلى القاعدة، حيتني لافتة قرمزية على بوابة الأسلاك الشائكة: "مرحباً بكم في مركز المدينة الجميل في بنه بهوك".

وقال لي السائق وهو يسلمني تجهيزاتي: "إلى هنا تذهب، أيها الملازم. والآن تستطيع أن تخبر أهلك في الوطن أنه قد تم تزفيتك... توصيلك".

كنت قد بدأت بالتغلب على الاضطراب المؤقت في إيقاعات الجسم، ولكنني لم أتأقلم بعد مع الحرارة والرطوبة التي تجعل الجسم يتصبب عرقاً. ووضعت بندقيتي ام-16 وكيس متاعي على كتفي وتبعت عسكرياً فنياً من الدرجة 4 نحيفاً اسمه أندرسون على طول ممشى من ألواح مهتزة، ملقاة على كتل من الطين الجاف، وهي التي كنا نسميها درب البط.

"أتتلقون الكثير من القذائف القادمة؟" سألته، ونحن نمر بين مستودعات من صناديق الذخيرة 105 ملم المكدسة الممتلئة وسخاً، والسقوف التي تعلوها أكياس الرمل بكثافة. لقد كان واضحاً من البحيرات المستنقعة حول نطاق المعسكر أنك لا تستطيع أن تحفر في الأرض عميقاً جداً بدون أن تصل إلى مستوى سطح الماء الباطن في الدلتا المشبعة.

"لا يا لِت، يعني أيها الملازم. لا شيء ثقيل جداً. هاونات في العادة، ولكن الفيتكونغ يرمون بعض الصواريخ من حين إلى آخر." وكان لدي عالم من الكلمات القصيرة المختصرة التي تُهَمهم همهمة والتي كان علي أن أرتبها: "فالصواريخ" كانت هي صورايخ عيار 107 و 122 ملم التي كان الفيتكونغ مغرمين بإطلاقها على قواعد مثل بنه بهوك. و"لت Lt" كانت هي الكيفية التي يخاطب بها الجنود الملازمين في الأرياف والغابة.

كان ضابط البطارية التنفيذي في حجرة المناوب المملوءة بأكياس الرمل ملازماً أول. ولكنه لم يكن مثل أي واحد سبق لي أن رأيته في فورت سيل. كانت عيناه منتفختين حمراوين، وكان وجهه شاحباً ممتقعاً، وكأنه لم يحصل على نوم ليلة كاملة

منذ وقت طويل. كان هذا واحداً من الرجال الذين يبدون مسنين على الرغم من أنه كان ولا ريب في عشرينيات عمره مثلي، كما ظننت. لا، ليس مثلي، فهذا الشاب تمرس بأشياء لم أخبرها.

وتمتم، وهو يحك ذقنه ويلقي نظرة على أوامري: "فرانكس، نعم، حسناً. الراصد الأمامي الجديد. النقيب يريد أن يضعك مع باندیدو تشارلي."

وتجهمت، وأنا لا أفهم.

"سرية تشارلي، الخامسة من الوحدة الستين يسمون أنفسهم (لوس باندیدوس)، (الخارجون عن القانون) ولديهم المناديل الحمر وكل شيء. لقد كانت السرية في دونغ تام، ولكنهم اتجهوا راجعين إلى هنا إلى الكتيبة في هذا الأصيل."

زلَّقتُ أوامري المختومة في المغلف. "وحدة جيدة؟"

ونظر إلي الضابط التنفيذي بارتياب. وكرر: "نعم. صحيح." في بيركات كنت قد سمعت المسؤول عن شؤون الأفراد يسمى البدلاء "اف ان جي" وتعني الشباب الجدد... الساقطين، ففي عيون الضابط التنفيذي كنت "اف ان جي"، فأي حق قد اكتسبته لأسأل عن نوعية وحدة مقاتلة؟ وفي أثناء الأيام العشرة التي كنت فيها في البلد، وكانت تجري فيها معالجتي من خلال الخط المباشر إلى بنه بهوك، لاحظت الموقف الرسمي البارد نحو البدلاء، ليست عداوة مفتوحة، ولكنها مجرد إحساس معين بالمسافة. لم يكن هناك أي شيء من قبيل القول: "مرحباً بك مع الوحدة، هيا نتناول فنجاناً من القهوة". وهو الأمر الذي قد تتوقعه وأنت تلتحق في وحدة في أرض الولايات المتحدة. كان هناك طريق واحد فقط أكسب به احترام هؤلاء الجنود: وهو أن أقوم بواجبي في القتال.

هذا عادل بما يكفي. سيتعين علي فقط أن أمد لهم يد العون.

وأزّ صوت الهاتف الميداني. وانفجر اللاسلكي الجالس على صندوق برسالة ثابتة مشوشة.

وأعلن رجل الاتصالات، وهو يستدير ليقرأ الإحداثيات التربيعية من قطاع الخريطة المعلق على الجدار: "السرية ألفا رصدت قناصاً مشتبها به في الكوخ عند، آه...".

وأومأ الضابط التنفيذي برأسه وهو ينصت إلى الهاتف، ثم استدار إلى الجندي، وهو ينظر متجاوزاً لي "ما هو الحقير (القناص المشتبه به)؟ فإما أن يكونوا في تماس أو ألاّ يكونوا."

وأضاف الجندي: "النقيب في مركز توجيه النيران."

وقال الضابط التنفيذي: "جيد. سوف يقوم هو بترتيب الأمر." ثم نظر راجعاً إلي كما لو أنني كنت فكرة طارئة. "أندرسون هناك سوف يرتب أمورك مع التموين ومسكن الضباط العزاب. وتستطيع أن تقابل النقيب في مركز توجيه النيران لاحقاً."

وأديت التحية، ولكن الضابط التنفيذي أومأ مجرد إيماء. "نعم، لا بأس."

عندما غادرت حجرة المناوب مع أندرسون، اهتزت الأرض بعصف انفجار قنبلة هاوتزر 105ملم.

وقال أندرسون بلهجة مساعدة: "طلقة تحديد، (لت) أي، يا ملازم."

وكان رائد ركن في اللواء في تان آن قد أعطانا إيجازاً عن قواعد الاشتباك لاستخدامها في نيران رمي المدفعية غير المباشر. فما لم تكن الوحدة في تماس مباشر مع العدو فإن على الراصد الأمامي أو ضابط المشاة أن يتلقيا ثلاثة تصاريح منفصلة من أجل المساندة بالنيران، تصريح من سلسلة القيادة في الجيش الأمريكي، وتصريح من جيش جمهورية فيتنام، وتصريح من المسؤول المناسب من حكومة فيتنام، وهو عادة رئيس المنطقة. ولكن لم تكن هناك حاجة لأي تصريح إذا بدأ الضابط طلبه لمهمة رمي بكلمات "في تماس" متبوعة بالحروف الأولى من اسمه بشكل كلمات مثل: "ويسكي جوليت"، عن وليام جونز. فلا عجب أن الضابط

التنفيذي كان غاضباً من التقرير عن قناص "مشتبه" به، في كوخ مدني، فالأمر قد يستغرق ساعات للحصول على كل التراخيص التي تحتاجه إليها البطارية من أجل تلك المهمة.

وعندما مشيت متابعاً لأندرسون من سقيفة التموين ومعي كوم من أدوات المنامة وحقيبة مليئة بتجهيزات الميدان، شعرت أن الوحل الجاف اهتز ثانية والمدافع الهاوتزر الستة تنطلق بلا إعاقة، وترمي رمي التأثير. فإما أن يكون قائد البطارية قد رتب الطلب المشوش لمهمة الرمي، أو أن مهمة رمي "في تماس" قد استلمت.

عندئذ وهناك، صممت على أن أحاول أن أكون صارماً لأقصى حد، وأن أمارس مهنتي بأفضل مقدرة لي. فتوفير المساندة بالنيران في القتال لم يكن لعبة. فجند العدو أو المدنيون الفيتناميون، أو الجنود الأمريكيون، سيعيشون أو سيموتون بناء على مستوى الجودة التي أقوم فيها بواجبي.

عند غروب الشمس، تمددت على سرير الميدان في المهجع الخانق، وكنت أرتدي بنطلوني الشخصي القصير فقط، ومقصورتي في عنبر النوم مفصولة بصف من الخزائن الجدارية. كنت مرهقاً مما حسبت أنه كان يوماً طويلاً قاسياً. وفي الوقت الذي كانت فيه عيناي تغمضان بالضبط، مع هذا، اهتز السطح الصفيح المتموج بضجة مزعجة للغاية، ضجة رشاشات، ورمي خطف ثابت من سلاح رشاش آلي أكبر.

قفزت ناهضاً، وخطفت بندقيتي ام-16 ولبست حذاء الغابات بدون جرابات.

وصحت للملازم الموجود في المقصورة التي تليني: "ماذا يحدث؟"

وخطا حول طرف الخزانة، وهو يضع منشفة خضراء حول خصره، ويلبس صندلاً في قدميه، ويمسك مجموعة نايلون للحلاقة، وابتسم مكشراً: "الدقيقة المجنونة ليس غير. سوف تعتاد عليه". ثم مشى الهوينى مبتعداً ليستحم.

وذهبت إلى باب المهجع، وما زلت أمسك ببندقيتي. وجاء نحوي ملازم آخر

على الممشى الخشبي، ونظر إلي باستغراب، ثم رجع بنظره نحو محيط المعسكر، وهناك كان الجنود يطلقون النار من بنادق ام-16 ومن رشاشات عيار 0.50 إلى حقول الرز الفارغة إلى الجنوب والغرب. وكان مدفع رشاش آلي بسبطانيتين عيار 40 ملم محمل على هيكل دبابة يضخ طلقات خطافة كثيفة حمراء في الاتجاه نفسه.

وتوقف الضابط الشاب الذي علته سمرة عميقة على الدرجة وشرح الدقيقة المجنونة. في كل يوم عند غروب الشمس،كانت الكتيبة تطلق أسلحتها الآلية التي يشغلها سدنة نحو الجانبين من محيط المعسكر اللذين لم يكونا محميين من بطارية الهاوتزر. وعلى الجانبين اللذين كانا محميين بالهاوتزر، كان يوجد طلقات خلية النحل، وهي قنابل معبأة بمئات من الصواريخ الفولاذية الحادة كالشفرة، وهي مكدسة ومجهزة بالصمامات، وجاهزة للرمي إذا دعت لها الحاجة.

وكان القصد من الدقيقة المجنونة هو تثبيط التسلل من الناحيتين غير المحميتين من القاعدة والتأكد من أن الأسلحة التي يشغلها سدنة كانت جاهزة.

وقال: "إن أي فيتكونغ يدخل في الليل من تلك الأرباع (ربع محيط دائرة) هو هامبرغر فوري".

وقال الملازم النحيف القوي وهو يمد يده: "لي آلي، فصيلة الاستطلاع".

وصافحت يده وقلت: "شكراً على المعلومات. تومي فون فرانكس، رويال سلوبوفيان هوسارز". وأنا أعترف بمكانة الشاب الجديد. لقد كنا منخرطين في عمل جاد مميت، ولكن ذلك لا يعني أنه يتعين علي أن آخذ نفسي بجدية زائدة.

بعد ساعات قليلة، استيقظت متعرقاً في الوقت الذي كان فيه مدفع هاوتزر يطلق طلقة مفردة. وبعد ثلاثين ثانية، ومضت وميضاً خفيفاً لوحة التهوية عند نهاية المهجع. وقدرت أنها طلقة تنوير: لابد أن وحدة مشاة ما في الخارج في دورية كمين طلبت طلقة إضاءة. وكان الهواء تحت شبكة ناموسيتي لزجاً. وقرقر بطني، فلم أكن معتاداً على حبوب الأرالين البيضاء الكبيرة المضادة للبرداء (حمى الملاريا). وقد

أعلن لنا المسؤول الطبي في بيركات بمرح وهو يوزع الحبوب إلى البدلاء: "سوف تجعلكم تتغوطون من خلال ثقب إبرة." دقق. ولبست الحذاء الخشبي الخاص بالاستحمام، والتقطت كشافي، وتوجهت إلى المراحيض.

عندما كنت أتبع أندرسون في القاعدة ذلك الأصيل، كنت قد رأيت جنوداً بدون قمصان يعملون في غيوم الدخان الأسود، يحركون براميل محروقات سعة 55 غالون مقسومة إلى نصفين يصدر منها السخام. وقال أندرسون: "سخرة الغائط، يا ملازم". يجب أن تحرق الغائط من المراحيض كل يوم ببنزين السيارات لتبقي الذباب قليلاً. والعمال المحليون من القرية يفعلون ذلك عادة. فهؤلاء الناس لابد أنهم قذرون ليعملوا ذلك الواجب."

والآن، وأنا أحمل لفة ورق الحمام بيد، والكشاف باليد الأخرى، مشيت خطوتين إلى أول مراحيض الألواح الخشبية المستورة. كانت رائحتها النتنة سيئة للغاية. لابد أن كثيراً من الناس قد استخدمها منذ أن تم حرق البراميل. وقبل أن أجلس، حدث أن وجهت ضوء الكشاف إلى الحفرة. فأحسست أن اللحم المفروم والبطاطا المهروسة المجففة من الماء التي أكلتها في العشاء قد صعدت إلى حلقي. فالبرميل من تحت كان يموج بكوم من الديدان البيضاء.

بطني في انقباض، وتعثرت خارجاً من ذلك المرحاض إلى الذي يليه. هذا المرحاض كان قد حرق. وعندما جلست أطلق مدفع هاوتزر طلقة تنوير أخرى فرقعت على بعد خمسة كيلومترات، إلى الغرب. وفي الضوء الخافت الداخل من خلال الساتر، قرأت رسالة خربشها أحدهم على الباب "في هذه الأرض، أرض الشمس، والمتعة، فإننا لا ننظف ونغسل بالماء للدرجة الأولى."

هذا مكان سوف يستغرق بعض الوقت للاعتياد عليه.

كانت السرية منشورة، في خط معركة متصل من الفصائل. وشققت طريقي بصعوبة عبر حقول شتلات الرز التي ترتفع حتى الورك مع مجموعة القيادة

الصغيرة في مركز المعلومات. على بعد ستمائة متر أمامنا، تقف هضبة من الغابة وأشجار النخيل المتهدلة ارتفعت فوق الأرض المسطحة مثل رغيف خبز أخضر. تلك كانت هدفنا. قبل الفجر، اكتشفت طائرة عمودية، من نوع يو اتش- ا هوي، مجهزة "بشمّام لروائح الناس" محمّل في مقدمة الطائرة، خصائص تبين وجود حرارة وبيانات تنفس تشي بثاني أكسيد الفحم، كاشفة بذلك وجود أناس في الغابة، وتوقعت الاستخبارات أن حوالي مائة من الفيتكونغ قد تخندقوا في تلك الأشجار، وهم يستخدمون الغطاء ملاذاً في النهار قبل أن يتحركوا لنصب كمائن على طول الطريق العام رقم 4 في الليل.

نقلت وحدتنا جواً على متن ما كنا نسميه "طيران الصقر"، إدخال بالطائرة العمودية، في وقت متأخر من ذلك الصباح، إلى منطقة هبوط تقع بين الطريق وبين تلك البقعة من غطاء الغابة. وتحركنا على طول قنوات الرز في رتل أحادي لمسافة ثلاثة كيلومترات عن منطقة الهبوط تقريباً، وكان مسيراً طويلاً وحاراً. ثم انتشرنا في التشكيل النظامي: اكتسح وطهر. كانت السرية مترجلة، وبدون مجنزراتها ورشاشاتها عيار 0.50، لذلك رجعت إلى المشاة التقليدية "بساق مستقيم" حسب اسمها.

ولكني كنت أملك السلطة لطلب رمي نيران المدفعية على العدو، طالما بقيت بارداً وقمت بواجبي. لا بأس، كيف يفترض أن أبقى بارداً؟ لقد بدأ الفصل الجاف، وكانت الشمس تضرب بثقلها على خوذتي الفولاذية.

في الأسبوع الذي كنت أمضيته في بنه بهوك، استوعبت كمية من المعلومات المفيدة من زملائي الضباط ومن "الناخرين"(*) وهو التعبير الذي أطلقه العسكر على رجال المشاة. فبدلاً من حمل ثلاثة صناديق نظامية من التموين - ج في حقيبة الظهر، أخذت معي فقط علبة شرحات لحمة واحدة وبطاطا، وعلبتين من الفاكهة،

(*) الناخر: المصوت بخياشيمه، أنظر المعجم الوسيط.

وحفنة من أكياس القهوة والسكر، وقايضت الوزن الزائد بمطرتين من الماء. وبدلاً من حمل حقيبة ظهر جبلية كبيرة الحجم حملت صرة صغيرة مضحكة مشبوكة بتجهيزاتي النسيجية. واحتفظت بمعطفي الواقي من المطر، ولكني تركت في الخلف بطانته المشبهة للحاف. فإذا تعين علينا أن نبقى الليلة في حقول الرز هذه، فإن البقاء دافئاً لن يكون مشكلة.

ومن مراقبة الشباب المتمرسين في الفصائل في الخط الأمامي، تعلمت أن أطيل حمالة بندقيتي ام-16، وهو الأمر الذي يسمح لي بأن أحمل السلاح وفوهة السبطانة للأسفل على عرض ظهري إذا لزمني أن أرفع شيئاً ما بكلتا اليدين. وعلمني الناخرون المشاة أيضاً أن أعبئ مخازن البندقية سعة عشرين طلقة بحيث تقل طلقتين لمنع الاستعصاء وكانت جواربي الجافة محكمة السد مربوطة بلفافة من بلاستيك التغليف السميك الجاف، وأربع صرر رقيقة من التموين ج من الونستون مربوطة في واقيات ذكرية.

وأحسست أنني مثل عسكري الغابات الحاذق تماماً.

ولكنني لم أقع تحت نيران الرمي حتى الآن، ليس تحت الرمي المباشر على الأقل، وهو النوع الذي يرمي فيه العدو عليك وجهاً لوجه. لقد تلقينا لليلتين هجمات بالهاونات في بنه بهوك، وقد أعطبت بعض التجهيزات، ولكنها لم تتسبب بإصابات جدية. كانت قنابل الهاون عيار 82 ملم تصفر نازلة بعد منتصف الليل، وتنفجر عبر القاعدة وفق نمط عشوائي. وأسرعت إلى محطة واجبي المؤقتة في مركز توجيه النيران، وهو زوج من أوعية الشحن السريع الفولاذية ملحومان من النهاية إلى النهاية وعليها أكوام من أكياس الرمل. ولمساندة ضابط مركز توجيه النيران "باللوحات ودبابيس التعليم"، أي، غرز دبابيس إحداثيات الهدف في لوحة الرمي في القاطع الواسع، قمت بالمساعدة على تعليم "النيران المضادة" على مواقع هاون العدو. كنت مشغولاً وأشاهد ضباط البطارية "يعملون" لإيجاد حلول الرمي، فلم أجفل حتى عندما ضربت الشظايا في أكياس الرمل وطرقت الغطاء الفولاذي.

ولكن نيران الهاون أبقتنا مستيقظين معظم الوقت ليلتين، ومع نقص النوم، كنت أجرجر نفسي متعباً طوال اليوم.

كنت متعباً جسدياً الآن، ولكني متنبه تنبهاً مفرطاً. وعندما وصلنا إلى الغطاء في خندق بارتفاع الصدر ويسير على عرض خط تقدمنا، أعلم قائد السرية باللاسلكي قادة فصائله بأن يتوقفوا وأن يمركزوا رماة رشاشاتهم ام -60.

وقال النقيب: "دعنا نقصف بعض نيران الرمي عليهم، يا فرانكس".

وكنت قد حصلت على التراخيص اللازمة من الجيش، ومن جيش جمهورية فيتنام، ومن حكومة فيتنام لأعطي أوامر برمي نيران المدفعية على مجموعة أشجار الغابة أمامنا. والآن يتعين علي أن أُعلِّم وآمر بأول مهمة رمي في القتال، وأطلب قذف قنابل على عدو حقيقي، لا على كومة من هياكل السيارات المدهونة المبعثرة على ميدان الرمي الغربي في فورت سيل.

وعندما سحبت نفسي إلى أعلى على الطين المشوي للخندق لألقي نظرة أفضل على الهدف كنت أعي أن خيالي سيرتسم على الرز الأصفر خلفنا. ربما كان هناك خمسون مقاتلاً من الفيتكونغ ينظرون إلي من خلال مناظير بنادقهم ايه كي - 47، ورشاشاتهم الخفيفة بي كي، وكنت بالتأكيد ضمن مدى القتل. وكنت مثل الناخرين المشاة حولي قد قررت ألا أرتدي السترة الواقية الثقيلة المرهقة في الحر. كنت أتنفس بشدة، وشفتاي المتشققتان جافتان.

شد عزمك. لهذا التحقت بالجيش. رفعت منظاري وركزت على خط الأشجار، وعددت خطوات المِلات المفروزة من اليمين إلى اليسار من الطرف الغربي للهضبة، والتي كانت مرئية بوضوح على خريطتي المغطاة بالبلاستيك، ثم لاحظت الملين للأعلى من الخط الأفقي الذي علّم نقطة تسديدي الأولية. ولكي أكون مستيقناً تماماً فقط، جلست على حافة الخندق وأخذت قراءة الزاوية السمتية من خلال فتحة بوصلتي 1م -2.

انزلقت للخلف وللأسفل وانحنيت مستنداً على المنحدر العكسي للخندق، آخذاً الهاتف اليدوي من نوع بي ار سي -25 من مشغل هاتف الإرسال اللاسلكي، وهو شاب في وجهه نمش واسمه وايتي.

وناديت مركز توجيه النيران في بنه بهوك، مستخدماً أفضل إجراءاتي في فورت سيل: "أوسكار أربعة، خمسة، صفر، مهمة رمي، حوّل".

وأجاب الصوت الشاب: "استمر، نيكل لاشيء" وقد ترجم إشارات ندائي، خمسة صفر، إلى أسلوب كلام الناخرين.

"عدو متخندق". ودرست الخريطة للمرة النهائية. وكانت البطارية في بنه بهوك خلفنا. والقنابل سوف تمر فوق الرؤوس نحو إحداثيات الهدف. "فوكس تروت مايك أربعة ثلاثة خمسة ستة اثنان أربعة. طلقة واحدة. سأضبط الرمي."

وقال الصوت عبر التشويش: "استلمت"

وأعلن الصوت نفسه بعد لحظة: "طلقة. حوّل." كانت الطلقة في طريقها إلى الهدف.

ونادى مركز توجيه النيران ثانية: انفجار، حول. "وكنت في الخلف على الخندق، أشاهد الهدف من خلال منظاري. وانفجرت الطلقة في الأشجار عند خمسين متراً لليسار وقرب حافة الهضبة. "يمين خمسة صفر."

وعصفت القنبلة التالية بانفجارها غيمة من الوحل ومزقت الأشجار تقريباً في نقطة التسديد. وناديت وأنا فخور بعملي: "رمي للتأثير."

وانفجرت فجأة رشقات من ست قنابل شديدة الانفجار وسريعة الصمامة لتنفجر عند التماس، وتحطمت على أشجار الغابة. وركعت على قمة الخندق. وكنت مستغرقاً في الخسائر التي كبدناها للعدو.

مشغل الهاتف اللاسلكي معي، وايتي، شد بعنف على حذائي. "ليست فكرة صحيحة أن تبقى مرتفعاً مثل ذلك هناك، يا ملازم."

بعد أربع رشقات، كان جانب التل المنخفض محفوراً بفوهات ينطلق منها الدخان. وناديت: "نهاية المهمة."

قال النقيب: "رمي جميل. يا فرانكس."

وتقدمت الفصائل بحذر إلى الأمام، بالطريقة التقليدية من النار والمناورة ورشاشات ام-60 توفر الغطاء. كنت مشبعاً بالعرق، وأمسك بندقيتي ام - 16جاهزة عندما اقتربنا من خط الأشجار.

وصاح الرقيب وقد وصل الجند إلى طرف الغابة المحترقة وهم يطلقون أسلحتهم من الورك: "احذروا وراقبوا الأسلاك العاثورية".

وأفرغت مخزناً في الحطام المتشظي، ثم تسلقت الحافة الوعرة من الفوهة التي حفرتها القنبلة، أكاد أعثرُ بالجذع الممزق لنخيل جوز الهند. وتصاعدت من الوحل الرائحة النتنة المريرة للقنابل شديدة الانفجار. ولكن لم يكن هناك جنود أعداء موتى، ولا دم، ولا أسلحة محطمة أو تجهيزات مهجورة في الحفر. كان المنظر هو نفسه أعلى الخط وأسفله، لا علامة على وجود خنادق، ولا حفر بنادق، ولا منعات أسلحة. لا شيء، صفر.

لقد طلبت قبل قليل أول مهمة رمي قتال لي، ونجحت في تدمير أربعمائة متر مربع من الغابة الفارغة.

واضطجع العسكر حول المكان في الظل الحار، وهم يمتصون الماء من مطراتهم، ويدخنون، ويسترخون، وهم شاكرون لأنهم لم يواجهوا تماساً.

وجلست هناك أشعر بنوع من التشوش الفارغ من مساء طويل يساوي ما صرف من الكُظرين (الأدرينالين) (*)، ربما في المرة القادمة سوف نوقع أضراراً حقيقية.

(*) هرمون تفرزه الغدة الكظرية في الدم استجابة للإجهاد الذهني والجسمي، سواء من الخوف أو من الإصابة. ويؤثر على عمل القلب ويزيد ضغط الدم ومعدل الاستقلاب وتركيز سكر الدم.

يوم آخر، واكتساح جديد، وقطاع مختلف. والمزيد من الاستخبارات عن فيتكونغ في حفر المناوشة. وبعد دخول بطيران الصقر، بالطائرة العمودية، سارت السرية وهي تحمل متاعها كيلومتراً حارّة بعد كيلومتر، عبر حقول الرز المروية من أجل محصول ثان للرز، تمر إلى جانب قرى مليئة بالنساء الصامتات وبالأطفال، ولكن بدون شباب فيها، وعبر ممرات ظليلة إلى جانب مجموعات نباتات الخيزران الطويلة التي كانت تخشخش في نسمات الأصيل فتجعل كل واحد من السرية عصبياً.

سرنا رتلاً عبر جسر مشاة من خشب فوق قناة ضيقة، ثم انقسمنا إلى رتل ثنائي وكل رتل منهما في فصيلتين، ودخلنا في ممرات منفصلة عبر مزيد من الخيزران العالي الذي ارتفع إلى الجنوب في منحدر متدرج. وكنت أنا في وسط الرتل الأيمن مع مجموعة القيادة.

كان الكمين من الفيتكونغ منصوباً بشكل دقيق في المكان والزمان، ويضرب رتلي من جهة الخيزران الكثيف الموجود إلى يميننا، مفجراً لغماً أمريكياً مستولى عليه من نوع كليمور مع رمي جارف على الممر من نيران بنادق ايه كي -47. وكانت طلقات لامعة خطاطة خضراء تشق طريقها عبر الظل، فتقطع الأوراق، وتكسر الخشب.

الجميع كان يطلق نيران بنادق ام-16 بالآلية الكاملة، ورشاشات ام-60 تدك مثل ثقابة الصخور. وسمعت فرقعة كصوت بووك من قاذف القنابل ام-79. كنت مستنداً على مرفقي في الطين، وأطلقت مخزنين نحو مصدر طلقات العدو الخطاطة العدو في الظلال.

وسمعت شخصاً صاح في المقدمة في المكان الذي انفجر فيه لغم كليمور "عسكري على الأرض، طبابة."

وكان رد فعل الجند رداً خبيراً، فحافظوا على إطلاق حجم ثابت من النيران.

ومن خلال الضجة وضربات قلبي شخصياً، سمعت الأمر: "نيران ساترة: تراجع بالزمر."

كانت مجموعة القيادة أولاً، الزحف لمسافة خمسة وعشرين متراً إلى دغل يقع إلى يسارنا، في الوقت الذي تقوم فيه زمر البنادق في نهايات الرتل بالمحافظة على جدار من النار. وبعيداً عن الأجمة الواقعة على جانب الممر المشبك وأعناب الأشواك الحادة المعقوفة، هناك فسحة بين الخيزران الشاهق، والغليظ الساق.

كان وايتي يلهث إلى جانبي، وهو يحمل جهاز الإرسال اللاسلكي بي ار سي-25 وهو مشبوك بإطار حمله مثل كتاب هواتف أخضر من حجم كبير. والآن سمعت فرقعة واضحة لنيران بنادق ايه كي من مقدمة يسارنا. الفيتكونغ قد وثبوا بكمينهم الآن، وهو في شكل L، من ناحية الساق.

أنصت للنيران القادمة من مواقعنا ولنيران الأسلحة الخفيفة من الفصيلة الأولى ومن قاذفات القنابل إلى اليسار الأسفل، محاولاً أن أكتسب صورة صوتية عن المواقع الصديقة والمعادية. وعندما جئت إلى غابة الخيزران كنت قد عددت الخطوات. وعلى الرغم من الضجة ومن صدري الذي يعلو ويهبط، فقد أمسكت بالهاتف اليدوي من وايتي وطلبت نيراناً مساندة. كنت أقطر عرقاً كثيراً على غطاء الخريطة إلى درجة احتجت معها أن أمسح البلاستيك لتتضح الخريطة. كان يجب أن تكون إحداثياتي دقيقة، وبحسب تقديري، كان موقع كمين الفيتكونغ على بعد 150 متراً إلى شرقنا وجنوبنا.

"اوسكار أربعة، نيكل لاشيء. في تماس. في تماس قريب." ثم إني أعطيت الحروف الأولى من اسم قائد السرية. "كمين في الخيزران، هوتيل ليما خمسة ثلاثة أربعة ستة خمسة سبعة، حوّل."

ورد مركز توجيه النيران في بنه بهوك فوراً، وبكفاءة هادئة، وضعوا الطلقة الأولى لليسار وأطول، ثم مشت قنابل فردية نحونا بزيادة خمسة وعشرين متراً.

وجاء قائد الفصيلة الأولى على تردد السرية ليعلن أن لدينا فرقاً في المدى نتيجة تحركنا نحو الشرق، وآخر قنبلة لتحديد الموقع انفجرت في الخيزران عند الساق السفلية للكمين. ثم جاء النداء من قائد الفصيلة الثالثة في الطرف الجنوبي من رتلنا يقول إن طلقة تحديد الموقع كانت في "خط المدى الصحيح "في الهدف.

وناديت مركز توجيه النيران: "ست قنابل للتأثير."

وقفز رقيب مشاة شاب، وكان يجثم خلف الأشجار المجاورة وصاح: "قوات صديقة قادمة! الجميع للأرض."

والخوذة مغروزة في طبقة من الأوراق الميتة التي تأخذ شكل قالب، أفدت باستلام نداءات "الطلقة" و"الانفجار" من البطارية. واهتز الطين تحت صدري. وأومضت موجات الصدمة المتوهجة من خلال الخيزران الظليل. وأبلغت الفصيلتان الثالثة والأولى أن السد الناري كان في الهدف. ولم تبق طلقات خطاطة خضراء تفرقع من خلال الخيزران.

كنت ما زلت ألهث، ومحفظة الخريطة تهتز بين أصابعي، وأحسست بدفقة من الرضا. لقد سحقنا قبل قليل كميناً يعتبر مثالياً من نوعه.

ثم نادت البطارية وأخبرتني، "لديكم مدافع في الجو."لانترن 03 و 04، – طائرتان عموديتان مسلحتان من نوع يو اتش – ا سي هوي، كانتا تدوران حول غابة الخيزران.

وقلت لطياري الطائرتين العموديتين: "اقصفوا بعض الصواريخ حول فوهات الحفر التي أحدثتها مدافع 105 وسأعطيكم الإحداثيات."

وأجابت لانترن 03: "لا أحتاج إلى الإحداثيات أستطيع أن أرى الدخان بوضوح."

وانقلبت على ظهري، محدقاً إلى الأعلى نحو الشمس من خلال الخيزران. كان مذاق السيجارة عظيماً، ومثله كان مذاق الماء الفاتر في المطرة. وذلك على الرغم من طعم حبات الهالزون المرة التي أسقطتها في مطراتي قبل ساعات قليلة لتقتل

جراثيم مياه القناة. وتزايد ارتفاع صوت الضربات العنيفة التي تصفق من الأجهزة الدوارة في الطائرات العمودية من طراز هوي. وكل واحدة من تلك الطائرات تحمل 38 صاروخا موازنة بالدوران مزودة برؤوس حربية مضادة للأفراد. وفي غضون دقيقة عرفت أن أي واحد من الفيتكونغ استطاع أن يبقى حياً بعد القصف المدفعي سيكون ميتاً.

وأومض الخيزران وقرقع، على بعد عشرة أمتار. وكان ذلك مثل صاعقة برق ورعد فوري من سماء مشمسة. ثم جاء بعده عصف آخر، وكان هذا أقرب حتى من سابقه. ثم اثنان آخران. وكان الخيزران يتشقق من حولنا. ثم جاءت ثلاثة انفجارات أخرى على بعد بضعة أمتار إلى اليسار. وكان الطين يرقص تحت صدري.

الطائرات المسلحة حددت مواقع معادية... ولكنها لا تعرف أين كنا نحن. كانت الطائرات "تمشي" بالصواريخ إلى فوهات الحفر التي أحدثتها قنابل المدفعية. ولكنها كانت تقوم بذلك بادئة فوق مواقعنا. والشباب من حولي كانوا يصيحون على قمم الأشجار. "أوقفوا هذه الصواريخ أيها... الحقراء!""

ومن خلال عصف الانفجارات نجحت في الصياح في الهاتف اليدوي وإيقاف الهجوم. كانت أذناي تطنان وأنا أسعل من دخان الكورديت المتصاعد من الصواريخ المتفجرة.

وصاح رقيب "هل أصيب أحد؟ هل سقط أحد؟"

كانت معجزة: إن رشقة من أكثر من عشرين صاروخاً ضربت عبر موقعنا، ولكن أحداً لم يجرح. وعندما كنا نصطف لننسحب ونلتحق بالرتل الآخر، كنت متعجباً من أن أرى أن كل رأس حربي في صاروخ، وهو الذي يحتوى على عدة أرطال من المتفجرات الشديدة الانفجار، كان له نصف قطر عصف ضار لا يزيد عن القنبلة اليدوية.

وبعد شهر في بلاد فيتنام، وضعت ثقتي في الأسلحة الأمريكية التي لا تقهر.

ولدي الآن شكوك في القدرة القاتلة لهذه الصواريخ من عيار 2.75 انش الأصغر بكثير. تحدثت مع النقيب، ثم أمسكت الهاتف اليدوي من وايتي وطلبت المزيد من قنابل عيار 105ملم، شديدة الانفجار مع الفسفور الأبيض، على إحداثيات الفيتكونغ.

عندما كانت المدفعية ما تزال تقصف قنابلها التي تتساقط على العدو، كانت فصائل رتلنا تتواعد على اللقاء عند طرف الخيزران. أصيب جنديان بالأسلحة الصغيرة، أحدهما في وركه، والآخر في كاحله. وقد ربطا في ضمادات تضميد المعركة ذات اللون الأخضر، وعرجا قُدُماً مع مساعدة زملائهما.

ثم ظهر الرتل الآخر من بين الأشجار. لم يكن أحد يعرج، ولكن جنديين حملا جثمان عسكري ميت، مربوط بمعطفه الواقي من المطر، وتتأرجح تحته قطعة على طوله من الخيزران المرن كالنابض. وكان الجندي الموجود عند الطرف البعيد من عمود الحمالة أقصر من زميله في المقدمة، وكان وجهه أحمر متغضناً من الإرهاق، وتبلله الدموع.

وكان يئن ويقول: "أولاد الحقيرات... السفلة."وبسبب قصره، كان عليه أن يمسك طرف العمود المقطوع بالساطور على رأسه. كانت يداه تنزفان.

ووضعت حمالة بندقيتي على عرض ظهري، ورفعت العمود من يد الجندي.

ورجاني وأنا أضع الحمل على كتفي: "لا بأس، يا ملازم، أستطيع أن أحمله. آندي كان صديقي."

وقلت: "سأعطيك استراحة قليلة. هيا، خذ سلاحي عن ظهري. فذلك سيساعد."

وإلى جانبي حمل الشاب بندقيتينا ام 16 على كتفيه. ومسح يديه النازفتين بساقي بدلته، بدلة العمل الموحلة الخاصة بالغابة. ولكنه لم يستطع أن يتوقف عن البكاء.

كان النقيب قد طلب طائرة عمودية للإخلاء الطبي للرجلين المجروحين وللرجل الميت. وخرجنا إلى حقول الرز في رتل منظم نحو الغيمة القرمزية المنبعثة من القنبلة اليدوية الدخانية التي تعلّم منطقة الالتقاط. لم يتكلم أحد. وحافظ العسكر على أسلحتهم جاهزة، وهم يتفرسون بصفوف الأشجار، ويراقبون طرف الخندق تحسباً لمصائد المغفلين والأسلاك العاثورية. هؤلاء الشباب قاموا بواجبهم اليوم، وثبّتوا كمين الفيتكونغ إلى أن استطعت أن أطلب مهمة الرمي وإلى أن استطاعت البطارية أن ترد كما فعلت، وبدقة مثيرة للعجب. والليلة سوف يستحمون ويزيلون نتن رواسب حقول الرز ويجلسون خارج أكواخهم في ظلام رطب، وهم يضربون البعوض، عندما يخرجون البيرة من أحواض الثلج، ويفتحون الأغطية بمفاتيح صدئة مثلثية تفتح بها القوارير، ويشربون علبة بعد علبة، ويدخنون، ويتحدثون، وربما ينجحون حتى في الوصول إلى الضحك.

وغداً سيكون هؤلاء الشباب مرة ثانية في الخارج يتولون القيام بالدوريات مرة ثانية. المزيد منهم سوف يجرح... والمزيد منهم سوف يقتل.

كانت الكتيبة تقوم في مرات كثيرة بعمليات اكتساح باستخدام المجنزرات، وكل سرية تركب عشر ناقلات جند مدرعة، وهي تحرك بعنف الغبار البرتقالي عندما تسرع الأرتال مبتعدة في اتجاهات مختلفة لتتقاطع في مناورات المطرقة والسندان. وأحياناً كنا نطهر وندمر وحدة فيتكونغ، ولكننا في العادة لم نفعل. وفي مهمة طويلة كنا نبقى ليلة في المناطق الريفية الغابية، وتكون المجنزرات مرتبة لتأخذ تشكيلاً في نطاق دفاعي وتكون رشاشاتها عيار 50.0 وبنادقها عديمة الارتداد عيار 106 ملم موجهة نحو حقول الرز المظلمة وصفوف الأشجار وهي أشد ظلاماً.

وكان الجند عادة يحملون مبردات البيرة الخاصة بهم في ناقلات الجند المدرعة، وهذا غير مسموح به رسمياً، وكان يجري التسامح به طالما أن الجنود في مراكز التنصت لا يشربون أكثر من علبة أو علبتين قبل أن يغادروا نطاق الموقع إلى الحفر الفردية البعيدة.

في إحدى الليالي، مشيت بين المجنزرات، أتجاذب أطراف الحديث مع قادة الفصائل وأجلس على الجزء الخلفي المائل من الناقلة مع المشاة الناخرين نتحدث عن كرة القدم والسيارات.

وفي التوهج الخافت لكشاف مصباح يدوي بعدسة حمراء، أدرت عليهم صوراً لسيارتي الصفراء الأولدز 442 مثل أب فخور يعرض لقطات فوتوغرافية على ابنه. وقلت متفاخراً: "سيارة جهنمية."

هؤلاء الجنود كانوا شركائي، وزبائني. بعضهم أمضى أحد عشر شهراً في فيتنام، وكانوا يعرفون بشكل جهنمي عن شن الحرب أكثر مما كنت أعرف. وكنت أحترمهم. وعندما طلبت مهمة الرمي، كان ذلك لسبب واحد: وهو حماية هؤلاء الجند عن طريق قتل العدو قبل أن يستطيع أن يقتل هؤلاء الشباب.

وقال عسكري وهو يعيد لي الصورة: "تلك جيدة... يا ملازم. سوف أقتني لي واحدة من تلك عندما أعود إلى العالم."

كل عسكري في فيتنام كان له سيارة يحلم بها، وينتظر أن يقودها من محل الوكيل بعد أن يكون قد أكمل نوبة عمله لسنة واحدة وبعد أن يكون جاء أخيراً التاريخ الذي يستحق فيه أن يعود إلى الوطن من وراء البحار.

كلنا كنا نعرف التاريخ المستحق لنا للعودة إلى الوطن من وراء البحار. وكان تاريخي هو 18 تشرين الأول/ أكتوبر 1968، ويبعد عن الآن عشرة أشهر تقريباً. وكان يعتبر أسوأ حظ ممكن هو أن تقول التاريخ مباشرة بصوت عال إلاّ أن تكون صرت فعلاً على بعد قصير منه، في حدود ثلاثين يوماً من العودة للوطن. نوبة العمل غير المرنة التي يفرضها الجيش لمدة اثني عشر شهراً، كما بدأت أدرك، لها نقاط سيئة بقدر ما لها نقاط حسنة. بعض الضباط كافؤوا الجند الجيدين بتكليفهم بواجبات داخل المعسكر في أثناء الشهر الأخير، ولكن تلك الرفاهية لم تكن دائماً متيسرة، وكان مستحيلاً تقريباً لمعظم جنود الجبهة أن يركزوا على واجباتهم عندما يكون قد

بقي لهم وقت قصير. ومع وجود العديد من السرايا أقل من الملاك، فقد يكون على العسكري القصير المدة أن يعمل بإجهاد في حقول الرز إلى آخر يوم له تماماً. وسمعت قصصاً عن عسكر كانوا قد رفعوا من المنطقة الريفية الغابية عند الفجر بعد رمي قتالي دام طوال الليل، ثم يؤخذ على عجل لاستكمال أوراق إنهاء نوبته ثم يوضع في شاحنة إلى بيان هوا أو كام رانه بي وعلى متن طائرة نفاثة مستأجرة ليعود إلى الولايات المتحدة في ذلك الأصيل نفسه.

في مدرسة الضباط المرشحين، علمونا عن "تماسك الوحدة"وهو الغراء النفسي الذي يمسك الوحدة معاً. وتلك الرابطة يمكن أن تنهك بسبب تيار من الرجال الجدد الذين يحلون محل قصيري المدة الذين كتب لهم البقاء إلى التاريخ الذي يستحقون فيه العودة إلى الوطن من وراء البحار. وأما في السرايا الجيدة مثل باندیدو تشارلي أو فصيلة لي آلي، فصيلة الاستطلاع، فقد عوضت الكبرياء عن ذلك التماسك الخاص، وذلك على الرغم من الاضطراب.

في تلك الليلة نمت ساعة أو ما يقارب ذلك، مستلقياً على الطين قرب مجنزرة قيادة عالية الجانبين، والمعطف الواقي من المطر موضوع كاللحاف على وجهي ويدي لإبقاء البعوض بعيداً. وقبل شروق الشمس تماماً، وهو الوقت المفضل لهجمات اضرب واهرب التي يوجهها الفيتكونغ بالهاون، استيقظت وصنعت فطوري.

على الأركان الداخلية من المنحدر الخلفي لناقلة الجند المدرعة، كان يوجد تجويفات مربعة كنا نستخدمها مواقد للتموين-ج. مزجت أجزاء متساوية مسحوقة من القهوة، والكاكاو، والقشدة المبيّضة، مع كيسين من السكر في علبة كعك، وملأتها بماء من المطرة. ثم وصلت من دون أن أنظر إلى المجنزرة، وعصرت واستخرجت قطعة من المادة المتفجرة سي-4 الصمغية من صندوق وأسقطت القطعة في الحفرة. ولمست قداحتي على المادة سي-4 فاشتعلت واحترقت بحرارة شديدة، بدون رائحة. وفي عشرين ثانية كان المشروب حاراً يصدر الفقاعات.

كنت أجلس على القسم المنحدر من المجنزرة، وتذوقت خلطة القهوة بالشكولاتة

تاركاً السكر والكافئين يستلان تعبي. وذاب الأفق الشرقي بسرعة من اللون القرمزي الناعم الغامق إلى الأصفر الثابت، شروق الشمس المداري المفاجئ الذي ما يزال يأخذني على حين غرة.

وعندما طلع ضوء النهار كاملاً، أفرغ الرجال الموجودون في حفر البنادق في مركز التنصّت الوسخَ من أكياس الرمل الخاصة بهم، وجمعوا الألغام من نوع كليمور وأحزمة الذخيرة عيار ام-60، ومشوا بتثاقل إلى دائرة المجنزرات. كانوا يبدون لي مثل أغبياء النفط الفجين، محنية ظهورهم، ومرهقين من دفع الأنبوب طوال الليل في تجهيزات الحفر القذرة. لقد كانت صورة موافقة لهم. فقسم كبير من صغار المتطوعين في الكتيبة كانوا من بيوت الياقات الزرقاء. وكثيرون كانوا بيضاً، والبقية كانوا سوداً أو هسبانيين. معظمهم كانوا مسحوبين بقرعة عسكرية، وآخرون، مثلي، تطوعوا بسب من الوطنية وحس المغامرة. لم يكونوا خبراء في الإنشاء الإنجليزي أو في الجدول الدوري للعناصر.

ولكنهم احتفظوا بعدتهم، أي أسلحتهم، نظيفة، واستخدموها استخداماً جيداً. لم يشعروا بالذعر عندما فرقعت الطلقات الخطاطة أمام وجوهم في غابات الخيزران. لقد أطلقوا النار وناوروا، مثلما فعل آباؤهم بالضبط في شجيراء النورماندي أو الغابات المنتنة من جزيرة لوزون.

لقد مدوا يد العون للجيش.

كنت وأنا أراقب الجند في شمس صباح رطب، أحس بخفقة حب، وكأن هؤلاء الشباب كلهم إخوة لي أو أبناء عمومة أقابلهم لأول مرة. لقد كنا عائلة واحدة في هذا القفر الغريب، ترتبط بروابط حميمة مثل رابطة الدم.

واحد من الشباب الذين كانوا في مركز التنصت جرجر رجليه من جانبي، وكان من الواضح أنه أكثر إرهاقاً مني. وبعد خمس دقائق سيرجع إلى مجنزرته، ونحن نصخب ونتحرك خارج المكان الذي نحن فيه لنحرم هاونات الفيتكونغ من هدف سهل. ولكنه الآن توقف وتثاءب تثاؤباً عميقاً.

وقال: "يا إلهي، إن رائحتها عظيمة، يا ملازم. ماذا لديك هناك؟"

"أظن أنهم في باريس يسمونها قهوتك الأساسية بالحليب. ولكن مع شوكولاتة."

"لا شك. ليس عندنا مثلها في كينوشا. هل مذاقها طيب؟"

وناولته العلبة، وأدرت له غطاء اليد المنحني لئلا تحرق أصابعه وقلت: "خذها. عندي وعاء كامل في المجنزرة."

طبعاً لم يكن لدي شيء. ولكن هذا العسكري كان يحتاج إلى القهوة أكثر مني.

"شكراً غير عادي للغاية، يا ملازم."

وكان الشاب يصفر في الحقيقة وهو يدرج بعيداً ويرتشف الشراب الحلو.

كنت غاطساً حتى ارتفاع الكتف في ماء القناة المستنقع. واهتزت ضفة الطين عندما ضربت طلقة الهاون حقل الرز الغارق في الماء، على بعد ثلاثين متراً خلفي. كنا ما زلنا مثبتين في موقعنا منذ غروب الشمس، والآن، بعد سبع ساعات ما تزال سرية تشارلي غير جاهزة لفك التماس.

لقد تم إدخال السرية إلى الطرف الجنوبي الغربي من سهل القصب بعد ظهر ذلك اليوم بلا شائبة تشوبه. وقمنا باكتساح طويل لحقول الرز، وللقرى، ولمحطات الغابة، وبحثنا عن كتيبة الفيتكونغ وهي القوة الرئيسية التي رفعت عنها الاستخبارات حديثاً بأنها تمركزت في هذا القطاع.

لم نجد شيئاً. وكالمعتاد، عندما كان مترجم جمهورية فيتنام يضغط على القرويين للحصول على معلومات، كانوا يحلفون على رأس بوذا بأنهم لم يروا شيئاً.

وحسبناها، مغامرة غير ناجحة، حفرة جافة أخرى كما في حفر آبار النفط، وتوجهنا غرباً على طول هذه القناة نحو منطقة التقاطنا. وقبل أن نصل منطقة الالتقاط، فتح العدو كل ما لديه بلا ضوابط: بنادقه ايه كي، والرشاشات الخفيفة والمتوسطة، والهاونات عيار 82 ملم، وبندقيتين عديمتي الارتداد على الأقل من عيار 75 ملم، نسفتا فتحتين كبيرتين في ضفة القناة، ولكن، على الرغم من ذلك، لم

يصب أحد بجروح سيئة، وكانت تلك معجزة. ولكن الغطاء الوحيد الذي كان لدينا هو القناة. وكان العدو مصمماً على أن يبقينا هنا.

في الخلف في الوطن، كان كثير من الناس يعتقدون أن الفيتكونغ كانوا رجال عصابات فلاحين، وأجبروا على أن يقاتلوا ببنادق غير متوافقة من البنادق اليابانية القديمة والطبنجات الفرنسية وأي أسلحة جديدة كان باستطاعتهم أن يغنموها أو أن يشتروها من جيش جمهورية فيتنام. تفرست في وحدات العدو وهي تناور في آخر ضوء من الشفق، فرأيت رغم ما تقدم، مفارز حسنة الانضباط في قمصان وبنطلونات الكاكي القصيرة، ويرتدي أفرادها تجهيزات نسيجية وقبعات ريف غابية مموهة، ويحملون أحزمة الذخيرة، ويحملون رشاشاتهم بي كي وهاوناتهم. وكل مفرزة فيتكونغ للأسلحة الثقيلة لديها عنصر الأمن الخاص بها الذي يطلق نيران ايه كي -47 . هؤلاء لم يكونوا متمردين لجزء من الوقت. بل كانوا مشاة خفيفة من الطراز الأول.

فرقع مشعل متوهج فوق الرؤوس وتأرجح رويداً تحت مظلته، ملقياً بظلال غريبة على القناة المظلمة. وتدفقت جداول من الطلقات الخطاطة عيار 7.62 ملم نازلة من طائرة سبوكي مسلحة، وهي تدور كالأنشوطة ذهاباً وجيئة مثل خراطيم رمي من النيون في خط الأشجار البعيد. وبالتأكيد لابد أن رجال القوات الجوية قد رأوا وميض سبطانة الهاون ذلك.

كانت سبوكي من نوع ايه سي-47، وهي حاملة جند معدلة، من الأربعينيات من 1940 ، وكانت تستطيع في ثوان أن تشبع ميدان كرة قدم بستة آلاف طلقة رشاش. وسمعت الأزيز المقرقع الصادر عن المدافع الصغيرة الثلاثة على الطائرة القديمة والتي تدار كهربائياً، وكانت حادة في مقابل الطنين الصادر عن المحركات. واحترق المشعل المتوهج إلى النهاية وعاد الليل المظلم الذي كان بلا قمر، بظلام أحلك مما سبق.

وفجأة فكرت بتلك اللحظة على متن رحلة الطائرة المستأجرة من خطوط

كونتيننتال وهي تقترب من بيان هوا، عندما وصلت إلى بلاد فيتنام. فكرت في المشعل المتوهج الصغير الذي انفجر على مسافة، وبجداول الطلقات الخطاطة تبتلعها المناظر الطبيعية: لقد كانت منذ عشرة أسابيع، ومنذ ألف عام تقريباً.

وحالما انعطفت الطائرة المسلحة بعيداً إلى الشرق، وصلت بيدي إلى جهاز اللاسلكي بي ار سي-25 وهو على الرف الذي علقه به وايتي بالضفة بسكينته من نوع كي - بار.

وناديت البطارية في تان آن، كانوا أقرب بكثير من المدافع الموجودة في بن لوك، ولذلك فإن نيرانهم سوف تصل الهدف بسرعة أكبر. "روميو ثلاثة، صمامة تقاربية وصمامة بطيئة على تلك الإحداثيات نفسها. عاجل. العدو يتحرك في العراء."

وتأملت أن تكون المدافع الصغيرة لسبوكي قد جعلت سدنة هاون الفيتكونغ يركضون نحو استحكاماتهم في تلك الأشجار. ربما كانت الانفجارات الجوية ستصيبهم. فإذا لم تصبهم فإن المقذوفات بصمامات بطيئة سوف تخترق الجذوع والطين قبل أن تنفجر.

وفي الوقت الذي بدأت تأتي فيه مهمة الرمي تلك تشخر على الموقع، فتحت الذبذبات إلى أقرب بطارية مدفعية تالية وطلبت مهمة رمي على عنقود من الأكواخ في المقدمة اليسارية حيث حول العدو إليه واحداً من رشاشاته الثقيلة عيار 12.7 ملم، وكان العدو بلا شك يحفر له في الموقع. وفي كل مرة استطاع واحد من رماتنا على ام-60 أن يخطف صلية نحو تلك المباني المنخفضة، كان الرشاش 12.7 يدك المنطقة على طول ضفة القناة، ويبقينا بذلك مثبتين في مكاننا لأجل الهاونات. كان يتعين علينا أن نخرس ذلك الرشاش.

وحالما كان المكان يحترق جيداً، ولم يكن هناك نيران مدفعية قادمة للموقع بشكل يهدد سبوكي، ناديت الطائرة المسلحة لتعود للموقع. "ضع كل شيء لديك على تلك الأكواخ المحترقة."

وذهبت سبوكي إلى العمل.

واستمر الليل الطويل في طحنه، بينما يأخذ مائة من الجنود الأمريكيين الشباب ملجأ لهم في خندق منتن.

وكما كان أبي يقول دائماً، لم يسبق أن حدث شيء فيه خير كثير بعد منتصف الليل، أؤمّن على ذلك وأستقبل الرسالة.

في نقطة ما قبل الفجر، ربّت وايتي على كتفي: "ملازم، ربما تريد أن تبتعد قليلاً. أريد أن أتبول."

"لا عجب أن الماء قد صار من فوره دافئاً بهذه الشكل."

المشاعل المتوهجة أضاءت السماء المظلمة. وزنّت سبوكي فوق الرؤوس. وأطلق العدو النار، حول مواقع الأسلحة، وأطلق النار ثانية. وعندما لم أكن مشغولاً في ضبط رمي المدفعية وتوجيه الطائرة، حاولت أن أقدر كمية المعدات العسكرية والذخيرة التي صرفها الفيتكونغ منذ غروب الشمس. آلاف من طلقات الأسلحة الآلية الخفيفة والثقيلة، وربما مائة قنبلة هاون. وتلك البنادق عديمة الارتداد اللعينة. نحن متأكدون تماماً أنهم يزيدون علينا بالقوة العسكرية. ولولا سبوكي والمدفعية لربما كنا جميعاً في عداد الأموات.

وعند أول ضوء، تسلمت الطائرات العمودية هوي من سبوكي، وقصفت بنيران جارفة القنوات الجانبية الضيقة الممتلئة بالأعشاب الكثيفة التي تؤدي عميقاً إلى سهل القصب، وهي طرق هروب الفيتكونغ.

في وضح النهار، بعد أن بقينا بدون أن نتعرض لنيران العدو لمدة ثلاثين دقيقة، زحفت السرية خارج الطين وجلست بضع دقائق في الشمس الدافئة. وبدأ الشباب العاملون على أسلحة ام-60 بالتناوب بالفك الميداني لأسلحتهم ومسح الأجزاء المتحركة منها بالزيت، أي، ينظفون أسلحتهم حتى قبل أن يتخلصوا من العلق الأخضر الغامق الذي ما يزال يلتصق بسيقانهم وثنايا أجسامهم. وفي نهاية

الأمر بدأت أنا ووايتي يساعد أحدنا الآخر، ننظف عصير الحشرات ونمسك بالسيجارات المشتعلة على العلقات إلى أن تسقط تلك الطفيليات، وهي تسيل دماً، ودعسناها إلى الوحل بكعب أحذيتنا.

وعلى الأفق الغربي المديد، كانت السماء الحارة، الصافية بلا غيوم ترجّع الانفجارات وتهتز.

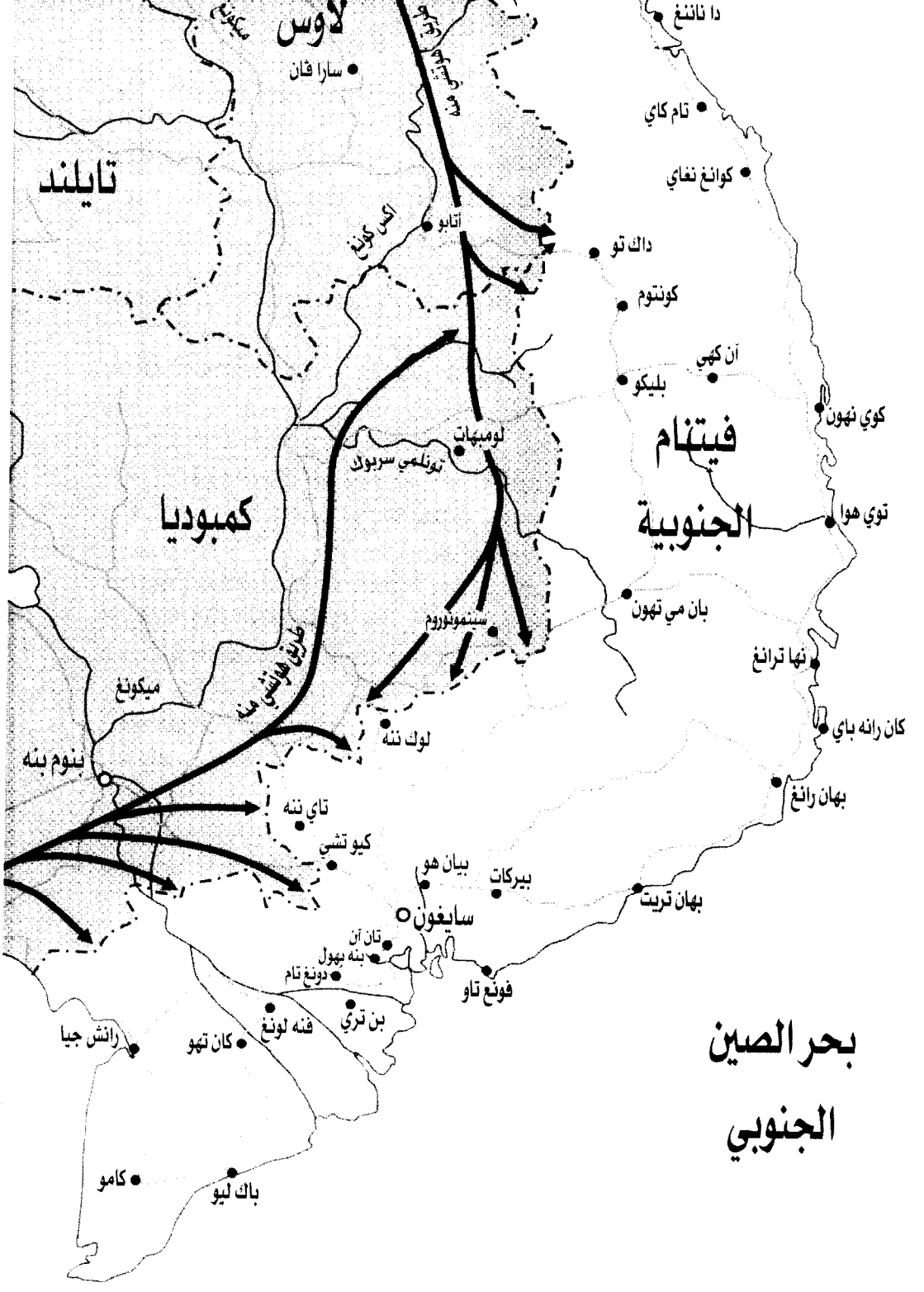

النزاع في فيتنام

وفكرت، مصباح نور بالقوس الكهربائي(*). اسحق أبناء الك...

كانت القاذفة ب 52 الضخمة تطير على مستوى أعلى من أن ترى، وكانت تنشر أنماطاً واسعة من القنابل زنة 750 رطلاً بعيداً إلى الغرب في سهل القصب. ومن دمدمة المتفجرات المستمرة، فُهِم أن القاذفات كانت تضرب كل الطريق المؤدية إلى باروت بيك وإلى تستيكلز، وهي معالم الأرض التي تنشأ من الثنيات في الأنهار التي كانت تجري نحو كمبوديا. وهذه أمة مستقلة بضربة حظ من تاريخ ما بعد الاستعمار، وكانت كمبوديا أيضاً ملاذاً رئيسياً للفيتكونغ وللجيش الفيتنامي الشمالي. فمن ذلك الملاذ الآمن، كانت وحدات من الفيتناميين الشماليين والفيتكونغ، من مثل الوحدة التي أبقتنا مثبتين في مكاننا طوال الليل، تستطيع أن تتسلل إلى الدلتا، وتقوم بالتخريب الموسد لها، ثم تنقسم إلى وحدات صغيرة وتتملص راجعة عبر الحدود، وهي محصنة ضد المطاردة من القوات الأرضية الأمريكية. بعدئذ، تستريح تلك الوحدات، وتعاود التجمع، وتعاود التزويد، ثم ترجع لتضرب جندنا مرة بعد مرة.

وضعت سلاحي على كتفي وتبعت صف الجند المبللين، المرهقين نزولاً على ضفة القناة الزلقة. واستمر الضرب البعيد من النور القوسي إلى الغرب. وفكرت، وعقلي مشبع بالإرهاق: إذا عشت طويلاً بما فيه الكفاية لأصل إلى أي مكانة في هذا الجيش، فلن أدع العدو يعمل من ملاذ آمن مثل ذلك.

الملازم تومي فرانكس لم يكن يعرف إلا القليل عن الإستراتيجية، ولكنني كنت أتعلم عن الحرب على مستوى الجندي. لماذا يكون القائد مجبراً مطلقاً على أن يرى جنوده يقتلون مع دخول أسبوع، وخروج شهر، ولا يسمح له بأن يأخذ القتال إلى العدو؟ وكما قالوا في ميدلاند كان ذلك غباء أكثر مما هو صندوق صخر.

ومع ذلك عدنا بعدئذ، وكان آخر شيء كنت أتوقعه هو قرارات قيادة عسكرية

(*) في فيتنام تعني القاذفات ب٥٢ وهي تسقط حمولتها الكاملة من قنابل زنة ٢٠٠ رطل على تجمعات جند العود المشتبه بوجودها.

طوال عمري. ولو كنت رتبت حياتي من خلال هذه الجولة في قطعة واحدة، لكنت متزوجاً من كاثي، وخارجاً من الجيش، ومنهياً الكلية. في ذلك الترتيب.

في كل يوم عند غروب الشمس، كانت الكتيبة ترسل دورية كمائن خارج سياج سلك بنه بهوك، وفي الغالب إلى مواقع أبعد من أن يتم الوصول إليها مشياً على الأقدام قبل حلول الظلام. في وقت متأخر في أصيل يوم من كانون الأول/ديسمبر ذهبت إلى خط من عربات ام-113 الواقفة في الموقف، وكان واحد من أصدقائي في الفصيلة هو الذي يقوم بالاستعدادات وتولي الدورية الليلية.وستركب المفرزتان للخروج في مجنزرات إلى تقاطع طرق يبعد حوالي عشرة كيلومترات.

قلت: "ما رأيك في أن تدعني أرمي على المجنزرة الثانية هذه الليلة؟"

"جرب ارم بها، يا توم."

وعلى الرغم من أن عربات ام-113 لم تكن تقدم حماية ضد الألغام الكبيرة أو قاذفات ار بي جي. فقد كنت أحب أن أجلس في فتحة القائد، ويداي على القبضتين الخاصتين بالرشاش عيار 0.50 بينما تهدر ثلاثة عشر طناً من الدرع على طول الطرق الطينية أو عبر قنوات الري. لقد كانت تعطيني إحساساً بأني غير قابل للتعرض للخطر.

كان سطح المجنزرة الألمنيوم ما يزال حاراً من الشمس عندما سحبت نفسي إلى الأعلى، وحنيت هوائي جهاز الإرسال اللاسلكي، وربطت عليه علمي الشخصي. وكانت وحدات عديدة تملك راياتها المثلثية الخاصة التي ينقش عليها سيفان متقاطعان أو جماجم القرصان مع العظام المتقاطعة. وبعض المجنزرات رفعت العلم التقليدي للمشاة "ملكة المعركة." ونظراً إلى أن المدفعية كانت ملك المعركة، فقد أعطيت خياطاً في قرية تان آن كرتون دخان من نوع لكي سترايك ليصنع لي راية حريرية سوداء تحمل كلمات: "كرات من أجل الملكة، مكتوبة بالحروف البيضاء. ولم تكن المقذوفات شديدة الانفجار من عيار 105 ملم كرات مدفع بالضبط، ولكن لماذا

ننشغل بالتفاصيل؟ كنت ما أزال أحمل ما يكفي من شاب الكلية لأقتنص ضحكاتي في كل مكان أستطيع أن أجدها فيه.

وقادت مجنزرة قائد الفصيلة بقية المجنزرات في الطريق ، وهي تصلصل على طول السير إلى عين الشمس الغاربة المنخفضة. وكان الأفراد قد فتحوا كوة السقف العلوية وجثموا بأنفسهم على صناديق الذخيرة وأكياس الرمل، وأجسامهم العلوية خارجة في الفضاء مثلي. ولم يكن هذا لمجرد التمتع بنسمة المساء الرطبة. إن اللغم المدفون في الطريق أخطر بكثير على الجند وهم داخل المجنزرة من خطر نيران بندقية ايه كي أو رشاش على الذين يجلسون على أكياس الرمل وأجسادهم العلوية مكشوفة معرضة للرمي.

بعد وضع الدورية، أسرعنا عائدين ونحن ندخل في بدء هبوط الظلام في الغسق، ونصل تقريباً إلى سرعة ثلاثين ميلاً في الساعة على امتدادات من الطريق مرصوفة بالحصباء رصفاً صلباً وتسير الطريق فيها على طول حافة فوق حقول الرز. ولكن عندما أبطأنا من أجل مقطع موحل من الطريق، شكلت قطعة من الغابة عن اليسار شكلاً ملتوياً كالأفعى، ربما كانت نباتات مرتفعة نمت في قاع جدول فاض في المونسون.وكالمعتاد، كنت مستحراً ومتعباً، وعطشان، وكان عقلي مع حمام بارد وعلبة بيرة بلو ريبون مثلجة.

وفجأة قصف الرشاش عيار 0.50 الموجود على مجنزرة قائد الفصيلة صلية رمي طويلة. وصاح: "تماس، لليسار أماماً." وكان صوته عالياً في سماعتيّ اللاسلكيتين.

ورأيت السبطانة تومض تماماً في الوقت الذي كانت فيه عصفة من طلقات بنادق ايه كي والرشاشات تفرقع من جانب رأسي. وطارت الطلقات الخطاطة الخضراء نحو المجنزرة، والعديد منها يصفق الهيكل. أدرت رشاشي عيار الخمسين وشغلت مفتاح الاتصال الداخلي وصحت بالسائق: "توجيه محايد إلى اليسار." وقام

السائق بالتدوير السريع للمجنزرة لتواجه صف الأشجار في الاتجاه المقابل المباشر، مواجهاً العدو بأضيق وجه من عرباتنا وبأثقلها تدريعاً.

واهتزت قبضتا الرشاش في يدي وأنا أطلق صليات رمي متكررة، ماشياً بالطلقات الخطاطة البرتقالية إلى داخل صف الأشجار. مضى علي شهران في بلاد فيتنام، وربما كانت هذه هي المرة العاشرة لي في القتال بالنيران، إحساسي بالخوف قد استبدل منذ وقت طويل وحل محله التركيز والأدرنالين.

وتدفقت ظروف الطلقات الساخنة من مغلاق رشاش الخمسين، محدثة صوتاً بين قدمي. ثلاث أو أربع طلقات في الصلية، ثماني أو تسع صليات... خمس عشرة. وقعقعت آخر طلقة تخرج من الشريط المفصلي في علبة الذخيرة التي تتسع مائة طلقة. فككت رتاج العلبة الفارغة، ورفعت أخرى في المكان المخصص، وعبأت شريطاً جديداً. وما تزال بندقية ايه كي تومض منخفضة في صف الأشجار. خمس، ست صليات أخرى. وبندقية ايه كي أخرى، أبعد إلى اليسار. وكانت طلقات الرشاش خمسين الثقيلة تمزق الأشجار إرباً إرباً.

ثم انفجر شي ما في الفتحة. وأحسست كأن مضرب بيسبول يصفق على ساقي الأيمن تحت الركبة تماماً. هل انفجرت آخر طلقة في الشريط في المغلاق نصف المفتوح، وقطعت ساقي بشظية من النحاس؟ أو هل ارتدت طلقة من طلقات الفيتكونغ من خلال الفتحة المفتوحة؟ زفت... لا يهم فأنا بخير.

وإلى جانبي في المجنزرة الأخرى كان الرشاش الموجود على حلقة الفتحة يدور إلى خلفنا. فصديقي كان يشتبك برشاشه عيار 50.0 مع فيتكونغ يجثم في حقل الرز خلفنا.

وهاتفني باللاسلكي: "نحن هنا، يا توم."

وعبأت علبة ذخيرة ثالثة والسائق يصفق الباب ويدخل في تجهيزاته، وهدرنا على الطريق نحو بنه بهوك.

كانت رجلي خدرة عندما وصلنا. وسحبت طرف بدلة العمل، ومسحت بعض اليود على بطن ساقي، وربطت مربع شاش على الجرح.

ألقيت نفسي في الهواء الرطب لمروحة تستقر على قاعدة في "نادي" باندیدو تشارلي، وهو مُعتكف في واحد من أكواخ السرية، وكرعت أول بيرة مثلجة في ثلاث جرعات.

وسأل الملازم تشارلي تيلور: "كيف سارت الأمور في الخارج هناك؟" وقلت: "تماس صغير، الأوغاد... حاولوا أن يضربونا ضربة غير متوقعة من قناص. روح أخرى لبوذا... بالمناسبة، هل تسمع عن هذا المرشح آجي من إل باسو في باريس في بيت عاهرات...؟

"هيه، توم، انظر إلى الأرض."

كانت هناك بقعة من الدم بسعة غطاء علبة قمامة منتشرة حول حذائي العسكري الأيمن.

وضعني الطبيب على طاولة الفحص، مضيئاً نوراً ساطعاً على الساق وهو يعصر ضمادة ضغط. وقال وهو يتراجع ليصل إلى صينية من أجل مسبار فولاذي لامع: "يجب أن نسبر الجرح. وهذا قد يؤلم قليلاً."

وضرب بخفة مُصدراً صوت تاب. تاب وغرز المسبار مسافة حوالي أربعة إنشات في عضلة ساقي. تاب. تاب. تاب. ولم تبق الرجل خدرة بعد ذلك. يحتمل أن يكون في الداخل قضيب أحمر حار.

وتنفست شهيقاً: "أوه، زفت..."

"عندك كتلة من شيء ما في الداخل هناك، يا ملازم. قطعة معدن." وعندما كانت طائرة الإخلاء الطبي العمودية من نوع هوي تطير إلى الجنوب الغربي عبر الليل البارد نحو المستشفى الجراحي الثالث في دونغ تام، بدأ المورفين يعمل عمله. المزيد من الأنوار الساطعة. وروائح الأدوية. والممرضات المتعبات. وصبي بائس على

نقالة بجانبي، ورأسه كرة من ضمادات الميدان الخضراء الدامية. وكانت رجلي وارمة على نحو سيئ، ولكن المورفين عوّمني بعيداً. وخرجت من الجراحة بمطارق خفية تسحق رأسي وساقي. ولم أكن أرغب في التقيؤ أمام تلك الممرضة الجميلة المظهر.

وجاء جراح وهو يضع نظارات بلاستيكية للأفراد وقد أمسك بملقط ورفع به قطعة فولاذ ملتوية. "تذكار، يا ملازم. كان علينا أن نقص قصاً عميقاً تماماً لنخرجها. إنك محظوظ جداً لأنك لم تنزف في مجنزرتك. ما يزال هناك خطر الالتهاب، ولذلك فسوف نخليك إلى مستشفى الميدان الثالث في سايغون."

والمزيد من هواء الليل البارد من الباب المفتوح في الطائرة العمودية من نوع هوي. كان الألم يأتي ويذهب. أما الحرب فلا. وبدأت أرتعش.

ولم أبق بعد ذلك كرات لا تقهر من أجل الملكة.

وحافظت المراوح الدوارة فوق الرؤوس على الجناح بارداً، ولكنها لعبت دوراً سيئاً للزينة التي تغطي شجرة عيد الميلاد البلاستيكية. وكانت وجبة الفطور في ذلك الصباح في وقت مبكر. وغير الخدم بياضات السرير، وقام العمال الفيتناميون بمسح أرضيات الحجرة وجدرانها. وكان عرض الممثل الفكاهي بوب هوب لمنظمات الخدمة الأمريكية يكتسح المستشفى قبل الغداء. ولكن رجلي كانت ما تزال تحمل أنبوبي تصريف سوائل، ولذلك لم أستطع أن أعرج وأمشي للخارج إلى كرسي في الفناء حيث تجري تأدية العرض. وبدلاً من ذلك دحرج العاملون عدداً من الأسرة إلى نهاية الممر وفتحوا الأبواب المضاعفة كي نستطيع أن نسمع. كان تداخل الأصداء سيئاً، ولم أستطع أن أفهم النكات. ونمت وموسيقى الروك تضرب بعيداً عن الجدران.

بعد وقت لاحق، فتحت عيني. أعدت إلى الجناح. وكان شخص ما يجلس على جانب السرير.

كان صوتها ناعماً: "مرحباً، يا ملازم" كانت جميلة: شعر طويل كستنائي على كتفيها العاريين، وقميص صغير أصفر وأبيض عاري الصدر والكتفين على تنورة كانت تنتهي عند وسط فخذيها الناعمين السمراوين. وانحنت للأمام. وقاومت الإغراء بالتفرس في جسدها المثير، اعتقد أنني خسرت. وقالت: "عيد ميلاد سعيد." ثم انتقلت إلى السرير الثاني. كنت الآن قد استيقظت يقظة كاملة.

وفي تلك الليلة، أحضر متطوع من الصليب الأحمر مسجلاً بشريط تسجيل على دواليب إلى الجناح، كي نتمكن جميعنا من تسجيل شريط بمدة عشرة دقائق إلى عائلاتنا، وأرسلت رسالتي إلى كاثي. وكانت ساقي تشفى بشكل جيد كما أكدت لها. وأن عرض بوب هوب كان "خيالياً." وأنني كنت مشتاقاً إليها. وآه، نعم، إن ممثلة نجمة سينمائية جميلة، كان اسمها "راشيل ويلز"، على ما أظن، جاءت وجلست على سريري.

وبعد سبعة وثلاثين عاماً، عندما قابلتها أنا وكاثي في العام 2002 على عشاء مراسلي البيت الأبيض، كانت راكيل ويلش ما تزال جميلة.

في شهر كانون الأول/يناير 1968م، عندما غادرت المستشفى، أعيد تعييني ضابطاً تنفيذياً بالبطارية دلتا 204 المدفعية، وهي وحدة تجريبية كانت تنشر مدافع هاوتزر عيار 105 ملم خفيفة الوزن محمولة جواً على ام-102، إلى داخل حقول الرز، وتحمل المدافع على منصات معدنية واسعة تبقى مستوية بواسطة أربع أرجل قابلة للتعديل والضبط، والطائرات العمودية سكاي كرين سي اتش-54 الضخمة، والتي كانت تبدو مثل حشرات ما قبل التاريخ، تحمل المنصات للخارج إلى أرض مسطحة موحلة. وبعد أن يقوم سدنة المدفع بضبط الأرجل لتسوية المنصات تعود الطائرات فتأتي بالمدافع والشبكات مليئة بصناديق الذخيرة.

ونظراً إلى أن ساقي كانت ما تزال عرضة لخطر الالتهاب، لم أكن أستطيع أن أعمل بشدة عبر الطين والعلق بصفة راصد أمامي مع سرايا الجبهة. ولكنني لم أكن راضياً عن الجلوس في مركز توجيه النيران في الكتيبة في تان آن، لأنني أستطيع،

نظرياً، أن أحافظ على ساقي جافة. ولذلك قفزتُ إلى الفرصة التي سنحت لأكون على منصات الرمي مع المدافع. كان عملاً قاسياً: كانت شمس الفصل الجاف تحول المنصات إلى مقلاة. وكنتَ تستطيع أن تشعر بالحر من خلال نعال التقوية في أحذيتك الخاصة بالغابة.

وعندما أطلق العدو هجوم تيت في شهر شباط/ فبراير 1968، هاجم الجيش الفيتنامي والفيتكونغ كل مدينة، وكل بلدة كبيرة، ومعظم قواعد الرمي في فيتنام الجنوبية. لا تسألني أين كانت بطارية دلتا في أي يوم معين أو ليلة معينة، كنا نُرفع من ورطة إلى أخرى، نعرق من خلال العمل كالعبيد في إقامة المنصات، والرمي في مساندة معسكرات القواعد المحاصرة، الأمريكية منها وتلك الخاصة بجيش جمهورية فيتنام. كنا ننام عندما نستطيع، ولم يكن ذلك كثيراً، وانكسرت ظهورنا ونحن ننقل البطارية من موقع إلى آخر، مرة بعد مرة.

ولم يكن مقاتل الفيتكونغ يحبنا مطلقاً. كنا نرمي النيران على تشابكات أشجار التين الهندي الاستوائية وقطع من الخيزران، حيث كان مقاتل الفيتكونغ قد حفر له حفرة واختبأ بأمان طوال سنوات.

لا تعرّق إذا صارت رجلي رطبة ومنتفخة، وإذا ورمت الغدد الليمفاوية الموجودة في ثنايا جسمي قليلاً وأصبت بالحمى. كنت أعمل ما بدا لي صحيحاً: مهاجمة العدو بنيران سريعة ودقيقة.كان الجيش الفيتنامي الشمالي والفيتكونغ قد شنوا هجومهم بهدف إيقاع أقصى عدد من الإصابات في صفوف الأمريكيين وجيش جمهورية فيتنام، مختارين بذلك التسارع في حرب الاستنزاف الطاحنة، ومختبرين قوة نيراننا... وقوة إرادتنا.

وفي الخلف في بنه بهوك، عمل المدفعيون في حفر المدافع بدون قمصان، وفي الأغلب بدون خوذات، وسترهم الواقية من الرصاص مكدسة إلى جانبهم. درع الجسم كان حاراً جداً ومربكاً عندما تكون عاملاً مع سدنة المدفع. ولكن النقيب بل باون، قائد بطاريتي الجديدة في بطارية دلتا، أصر على أن يلبس السدنة قميصاً،

وسترات واقية من الرصاص، والخوذات. كان بل باون ضابطاً كيّساً نذر نفسه لعمله، ولكنه بالتأكيد لم يكن يفهم نفسية الجند، أو هكذا ظننت.

في أحد الأيام، بعد أن طار النقيب ليقوم بمسح لموقع الرمي التالي، استدار الجند إلي وقالوا: "هيه، يا ملازم، هل يجب علينا أن نبقى مرتدين كل هذا الزفت... علينا؟

"ابدؤوا واخلعوها."

وعندما عاد النقيب باون بعد ساعة، قال للجند أن يلبسوا تجهيزاتهم. ثم أخذني إلى جانب ووبخني على كسر الإجراءات.

لقد أهنت، وأحبطت. "يا نقيب، لقد ألغيت أمري. لقد جعلتني أبدو كالأحمق أمام الجند."

وحدق في عيني. "يا ملازم فرانكس، عندما تتعلم أن تعمل واجبك لن يكون علي أن أفعل ذلك بدلاً عنك. أن تكون ضابطاً جيداً ليس معروضاً في التنافس على الشعبية."

كرهت سوء التقدير... ذاك. ولكني لم أنس ذلك الموقف أبداً. وفي الحقيقة اتبعت نصيحته طوال خمسة وثلاثين عاماً تلت.

بعد عصر ذلك اليوم كنا قد ركزنا المدافع في القصب العالي قرب قناة بو بو، وهي واحد من مصادر التسلل الرئيسية لجيش فيتنام الشمالية من كمبوديا. وأرسلت كلمة إلى كل المنصات: من الآن فصاعداً على كل جندي أن يلبس قميصه، وسترته الواقية من الرصاص، وخوذته الفولاذية. وحيا الجند هذه الأخبار بتذمر متألم، كنت أعرف أنهم قد أغضبوا، ولكنهم فعلوا مثل ما أمروا.

بعد منتصف الليل، قامت سرية من الفيتكونغ بالخوض في المياه بصمت نحو المنصات، دافعين زوارق محملة بقاذفات ار بي جي. كان القتال سريعاً ووحشياً بشكل خاص. كنا قد تأكدنا من أن مدافعنا ام-60 كانت تغطي نطاق محيط موقعنا،

وأن المدافع كانت تستطيع أن تطلق طلقات خلية النحل(*) في دائرة كاملة. وعندما بدأت الطلقات الخطاطة الحمراء والخضراء تقطع ذهاباً وجيئة، عمل سدنة الهاوتزر على عطف السبطانات لمستوى الصفر. وكان كل مدفع يطلق طلقات خلية النحل مستقلاً، وكانت ألسنة اللهب تضيء الماء المظلم عندما كانت آلاف صواريخ خلية النحل تشق حقول الرز.

قتلنا مجموعة من الفيتكونغ في تلك الثلاثين دقيقة الجنونية. وكانت خسائرنا خفيفة، قلة من العسكر أصيبوا بجروح طفيفة، ولكن لم يكن هناك ما يحتاج إخلاء جوياً. وكل تلك الخوذات المتصببة عرقاً والسترات الواقية كانت قد أوقفت الكثير من شظايا قاذفات ار بي جي والرصاصات المرتدة من بنادق ايه كي. وعندما كنا نعمل تحت وطأة حر الشمس في الصباح التالي،لم أسمع أي كلمة من الشكوى.

بعد أسبوع تحركت البطارية إلى قاعدة رمي أبعد إلى الجنوب. وفي أول ليلة كنا فيها في الموقع الجديد، أصابت طلقة هاون من العدو واحداً من مستودعات ذخيرتنا، واندفع العدو مهاجماً من ذلك الركن من محيط موقعنا. كان السلك قد نسف، والدخان يخرج من أكوام أكياس الرمل المدخنة. سحبت بعض الرجال من سدنة المدفع، وأسست محيطاً لوقف الثغرة خلف بعض الشاحنات. وبالبنادق والقنابل اليدوية، أمسكنا خط الجبهة.

وفي أثناء قتال رمي النيران، وقعت طلقة من عيار 105 ملم في الحطام، وأصبت ببعض الشظايا في يدي وساعدي، ومع ذلك لم تكن الإصابة خطيرة، ولكن الكتيبة أمرتني بالعودة للخلف إلى تان آن للعمل في واجب خفيف. كانت يداي في الضمادات، وكنت مازلت أعرج قليلاً، ولكنني لم أحبب فكرة التحول إلى العمل في النسق الخلفي مع أولاد ...أمهم، بينما يقوم كل جنودي بالقتال.

وهكذا صرت راصداً أمامياً جوياً، وهي النسخة الطيارة للراصد الأمامي.

(*) ذخيرة تستخدم للقتال القريب، ولا يحتاج الرامي لتسديد بل يوجه ويرمي. وهي مثل طلقة بارودة الصيد.

نوع الطائرة أو- 1 المسمى بيرد دوغ (كلب صيد الطيور) كان طائرة سيسنا بمحرك واحد، يجلس فيها الطيار في الأمام، ويجلس الراصد خلفه. ويوفر الجناح العالي والنوافذ الواسعة منظراً ممتازاً. ونظراً إلى أن هذه الطائرة الصغيرة تطير بحوالي 100 ميل في الساعة.، فإن الأرض تحتها تتكشف ببطء، وهو ما يعطي الراصد الكثير من الوقت ليتفرس فيها. في الأيام القليلة الأولى وجدت من الصعب أن أعلم إحداثيات الهدف من الجو، فقد كنت معتاداً على منظور مستوى حقول الرز. ولكنني بعد أسبوع أو ما يقاربه صرت معتاداً على العمل الجديد. ووجهت لنا تشارلي(*) طلقات عشوائية سهلة، ولكن الطائرة القديمة كانت مبنية لتحتمل العقوبة. ومع الأزيز الرتيب في الهواء البارد نسبياً على ارتفاع ألفي قدم فوق فسيفساء حقول الرز الخضراء والسمراء وفوق غابة الأشجار القصيرة الكثيفة، ومع القنوات وجداول شجر التين الاستوائي وهي تتلوى بعيداً في الضباب الرقيق، فقد استرجعت إحساسي بألا أهتم ولو اهتماماً ضئيلاً بعدم التعرض للخطر.

وطيارونا أيضاً أظهروا احتقاراً معيناً للخطر. أحد الشباب، وكنا نسميه عظاية، طار مثل طيار قديم في الألعاب الخطرة. رد في الهاتف الداخلي في صباح أحد أيام شهر آذار/مارس: "أتريد أن ترى أفضل طريقة لتفقد الارتفاع بسرعة؟"

"مؤكد، لم لا؟"

انقلب خط الأفق البني عاليه سافله عندما استدارت الطائرة عاليها سافلها. وفجأة صرت أحدق للأعلى في حقول الرز. وعام منظاري وسبح قرب وجهي لمدة ثانية، وقبضت على خريطتي قبل أن تبتعد خارجة من النافذة المفتوحة. كان الأنف موجهاً بشكل مستقيم إلى تحت، وبدوت لنفسي وكأنني أزن ثلاثمائة رطل: "آه، يا إلهي!" هذا الشاب مختل عقلياً.

(*) تشارلي، في فيتنام، جندي شيوعي فيكتونغ، وهو أحياناً اسم السرية سي، ج.

استوينا عند ارتفاع حوالي 200 قدم، ونحن نطير في الاتجاه المعاكس.

وضحك العظاية: "هذا ما نسميه (شق- S)".

وفي يوم آخر طار بي غاتور صديق العظاية في نمط بحث طويل فوق سهل القصب. كنا قد أمضينا في الجو خمس ساعات عندما حددنا دخان طبخ يتصاعد كالريشة من مستنقع شجر التين الاستوائي، وهو مكان لا يمكن لمدني برئ أن يخرج إليه للنزهة. حصلت على كل التراخيص وطلبت مهمة رمي من بطارية المدفعية 155ملم. وتمزقت أشجار التين الاستوائي وتعالى منها الدخان واللهب وهنأت نفسي ونحن نطير على ارتفاع ألف ومائتي قدم في جو بارد. وفي طريق العودة إلى تان آن، استخدمت إحدى مطراتي الفارغة، معلمة بحرف "پي" بالقلم الشمع، للغرض المخصصة له. وهو شيء جيد فعلته.

وسأل غاتور: "هل كنت فوق جسر تان آن؟"

وقلت: "حوالي عشرين مرة فقط."

وصاح وهو ينظر للخلف فوق كتفه بابتسامة مكشرة خبيثة: "حسناً، أراهن أنك لم تكن تحت الجسر أبداً".

وسحب عملية شق- Sعنيفة، وفجأة كانت تجهيزات هبوطنا على بعد عشرة إنشات فوق ماء النهر الموحل. وملأ الجسر ذو البرج الساند المنخفض واقية الريح الأمامية. ولثانية، فكرت في أن أضرب بابي لأفتحه وأقفز، بدون مظلة. ثم إن قعر الجسر صار فوق رؤوسنا مباشرة وكنا نخرج من الجانب الآخر، متسلقين فوق الأكواخ ومراكز الحراسة المحمية بأكياس الرمل.

وصاح: "ذلك تدريب جيد، يا توم، فأنت أحياناً تريد أن تنزل إلى تحت مستوى ضفاف القناة إذا كان رمي تشارلي موجهاً إليك".

وفكرت بأنني إذا نجحت في العودة إلى المطار، فإن مذاق البيرة سيكون جيداً بقوة... وتتبعه جرعات قليلة من مشروب ويسكي وايلد تيركي.

وعلمني العظاية أيضاً كيف أسقط قنابل جرّة مايسون (مرطبان)، وهي حيلة قديمة من الحرب الكورية. عندما كنا على المهبط في صباح أحد الأيام، راقبته يصف ست جرات مايسون سعة الواحدة باينت واحد في ظل الجناح. ثم قام بسحب ست قنابل يدوية متشظية ام – 26 بيضاوية من حقيبة خوذته.

وقال: "يجب عليك أن تتأكد من أن قعر الملعقة للأسفل (عتلة الأمان) داخل الجرة قبل أن تسحب المسمار." وراقبته وهو " يعبئ " الجرار.

القنابل اليدوية بدون مساميرها كانت تجعلني عصبياً. ولكن، ولدهشتي، فإن حشر قنبلة يدوية في داخل جرة مايسون كان يمسك عتلة الأمان "الملعقة" مسكاً شديداً على الجدار الزجاجي للجرة، ويحافظ على الصمامة المؤقتة لأربع ثوان من أن تتفعّل إلى أن يتم تحطيم الجرة عند الاصطدام. وبعد أن حشر أول قنبلة له بأمان في داخل الجرة سحب المسمار، وثبت الغطاء المزود بسداد مطاطي، وتابع ليجمع الجرار الخمس المتبقية.

ثم وضع الجرار في الحقيبة وناولها لي. "عاملها مثل البيض، يا توم. ليست فكرة حسنة أن تفجرها هنا."

عملت القنابل حسب التعليمات. وعندما كنا نطير في ذلك الأصيل، سمعت نداء على ذبذبة اللواء الثالث يقول إن دورية في جيش جمهورية فيتنام قد تتبعت أثر بعض الفيتكونغ إلى مجموعة كثيفة من أشجار الموز. ودار العظاية حول الهدف على ارتفاع يقارب ألف قدم، محافظاً على الجناح الأيمن مائلاً على زاوية حادة. ولم أكن بحاجة إلى جهاز تصويب القنابل من نوع نوردن لتحديد نقطة إسقاط القنابل، قمت بمجرد إسقاط جراري من خلال ضوء الشمس، الواحدة بعد الأخرى، وراقبتها وهي تختفي في الغطاء الأخضر. فحتى من ارتفاعنا ذاك كنا نستطيع أن نرى القنابل وهي تنفجر.

وسأل العظاية: "بعيدة تماماً، هه؟"

"كن متأكداً."هذا أفضل بكثير من الخوض مع العلق.

وبعد غروب الشمس تماماً في يوم آخر، كنا نطير على ارتفاع خمسمائة قدم فوق قناة واسعة قرب تان ترو. كنا قريبين من المستنقعات الساحلية لشجر التين الاستوائي، وهي منطقة استخدمها تشارلي ليهرب ذخائر صعوداً في النهر، وكان غروب الشمس هو بدء منع التجول الرسمي لحركة الزوارق. وحددنا زورقاً صغيراً أسود ينزلق صاعداً في القناة في آخر أنوار الشفق.

وقام العظاية بقطع الخانق، وانحدرنا بهدوء. وسقطت جرتاي قريباً من خط الوسط من الزورق. وكان هناك عصف مرض من الانفجارات الثانوية عندما قامت القنابل اليدوية بإطلاق الذخائر المخبأة تحت غطاء القنب.

وصاح العظاية: "مدين لك ببيرة."

"صح، اللعنة أنا...."واهتزت الطائرة وزاغت بشدة، وكأننا قد جرينا فوق جذع شجرة في طريق. وأتبعت الطائرة بطلقات خطاطة متمايلة والعظاية يغوص. وقلت: "عمل عظيم. لقد أخطأتنا طلقاته."

وصاح العظاية: "ليس تماماً. ابن الك... أصاب دولابنا الأيمن فأزاله كاملاً."

وانحنيت نحو تيار ريح المروحة. مؤكد تماماً، فدعامة جهاز الهبوط الأيمن كانت مقطوعة نزولاً إلى منتصفها وكأن ذلك بفعل مقص صفيح عملاق.

وعلق العظاية: "سيكون هبوطاً مثيراً للاهتمام."

وضغطت على السترة الواقية التي كنت أجلس عليها دائماً، بينما اتصل العظاية باللاسلكي مع تان آن ليجهزوا شاحنات الهبوط العنيف. وعندما كان ينعطف جنوباً من أجل اقتراب طويل، بطيء، قمت أنا بشد تجهيزاتي إلى درجة ضيقة جعلت ساعدي يتخدران. وبزغت أضواء القاعدة بينما حافظ العظاية على الطائرة بحيث يكون أنفها إلى الأعلى، وجناحها الأيسر للأسفل. وبعد قليل كنا فوق المدرج، خمسة عشر قدماً ثم عشرة أقدام. ولامس الجهاز الرئيسي الأيسر والدولاب الخلفي المهبط في الثانية ذاتها. وأمسكت نفسي والعظاية يتدبر أمر عصا

القيادة والخانق، ويحافظ بشكل ما على الجناح الأيمن ليمنعه من العرقلة والنزول إلى تحت فيقذفنا ويستمر في ذلك إلى أن يكون قد استنزف السرعة. وعندما جاءت الانعطافة الأنفية الأرضية الحادة التي لابد منها، كانت عنيفة، ولكنها لم تكن كارثية. فهذه الطائرة، كلب صيد الطيور، ستعيش لتصطاد ثانية.

في تلك الليلة في نادي تان آن أكرمت الطيارين بالمشروبات الكحولية والبيرة.

بعد أن شفيت ساقي، عدت إلى بنه بهوك بصفة ضابط ارتباط للكتيبة الخامسة المدفعية، ومسؤول عن الراصدين الأماميين للسرايا الأربعة. كان المقدم إيرك أنتيلا قد تولى قيادة الكتيبة. كان ضابطاً هادئاً في الأربعينيات من عمره. وهو مسحوب بالقرعة العسكرية بعد الحرب العالمية الثانية وكان قد تخرج لاحقاً من كلية ويست بوينت. ومنذ ذلك الوقت، حصل على درجة جامعية في الفيزياء النووية وكان يعمل في درجته في الدكتوراه.

لم يسبق لي أبداً أن قابلت مثقفاً من عيار أنتيلا. ولكنه هو أيضاً برهن على أنه قائد قتالي شجاع وحاسم.

حياني في ذلك الصباح الأول في مقر قيادة الكتيبة في الجانب البعيد من قرية بنه بهوك. كانت هناك مجموعة شعرية مجلدة بغلاف جلدي على رف كتبه، وحفنة صغيرة من الصور النسخ التي تبينت بشكل غامض أنها صور مرسومة للفنانين الفرنسيين الانطباعيين معلقة على الجدران المصنوعة من ألواح الخشب الخشنة.

"فرانكس، ماذا يسمونك تومي أو توم؟"

"عادة توم، يا سيدي."

وتبسم. "لا بأس، توم. إنهم يقولون إنك تعرف شيئاً ما حول المساندة بالنيران." وكان يقلب الصفحات خلال الملف البني لإضبارتي الشخصية. وقائد كتيبتك في المدفعية، بوب ديرمبير يسميك (بطلاً شاباً) ماذا تقول في ذلك؟ "

"حسناً، يا سيدي..."بدأت بذلك، ووجهي يزداد وهجاً حاراً تحت تلويحه بالشمس ستة أشهر، وأكملت: "أنا أقوم بواجبي فقط."

"توم، الشجاعة هي واجبنا. نحن مسؤولون أن نقدم القدوة والمثال لجنودنا. وآمل أن أعيش المثال الذي قدمه الضباط الشباب أمثالك وأمثال لي آلي في الوحدة 5-60. "

في الشهور التسعة التي خدم فيها لي آلي في الكتيبة، كان قد قاد الجند خلال بعض القتال الذي يعتبر من أعنف أنواع القتال الذي رأته أي وحدة في ڤيتنام. وقد قام قائد كتيبتنا السابق، المقدم وليام ستيل، بترشيح لي آلي لوسام الشرف بعد أن قام لي بإنقاذ أعضاء مجروحين في فصيلته، وهي فصيلة الاستطلاع التي قادها تحت نيران كثيفة، وجمع حوله المدافعين عن قاعدة رمي كان مئات من الفيتكونغ قد اجتاحوها تقريباً في شهر تشرين الثاني/نوفمبر.

"لي آلي من فريق كبير عالي المستوى، يا سيدي، وأنا من نادي مزرعة صغير من مستوى ثان أقل للبدلاء."

"إنهم يشربون المارتيني في نادي المزرعة عندكم، يا توم."

"تذوقتها مرتين في الكلية، سيدي."

وتبسم ثانية. "جيد. لأني أستمتع فعلاً بمارتيني البيفئيتر، وأنت وأنا سوف نقضي الكثير من الوقت معاً."

في ذلك الصباح، في مكتب إيرك أنتيلا، بدأت الدراسة في واحدة من أهم مدارس القيادة التي سبق لي أن درست فيها.

وفي عصر يوم أربعاء في شهر آذار/ مارس، كنت القائد في مجنزرة في قوة رد الفعل التي قادها لي آلي وخرج من قاعدة رمي جديدة جنوب بنه بهوك على الطريق الرئيسي العام رقم 4. تسلمنا مكالمة تفيد أن عربة ام- 113 للكتيبة قد دمرت بلغم على الطريق إلى كي لي. كانت الطريق واسعة ومستوية بشكل معقول، ونسير على طول حافة فوق حقول الرز الجافة، المليئة بالأعشاب الضارة. وكان هذا

القاطع هو قلب البلاد الهندية، وهو القاطع الذي خدم فيه معظم الرجال بالدوام الكامل في القوة الرئيسية من وحدات الفيتكونغ.

كان يمكن لما وجدناه أن يكون صورة من جحيم دانتي، وهو كتاب كان إيرك أنتيلا قد أقنعني مؤخراً أن أقرأه، في محاولة لبذل جهد "لتوسيع عقلي."

امتدت الحفرة التي يتصاعد منها الدخان عشرة أقدام عمقاً ومثل ذلك على الأقل عرضاً. وكانت القطع الملتوية من المجنزرة بارزة من الحفرة، مثل شظايا علب الصفيح التي كنا ننسفها بقنابل الألعاب النارية في الخارج في الخنادق الجافة حول ميدلاند. ولكن ناقلة جند مدرعة زنة ثلاثة عشر طناً لم تكن علبة بندورة (طماطم) مسلوقة. لقد كان الانفجار قوياً إلى الدرجة التي نسف فيها محرك الديزل الكبير في العربة ونسف مقدمتها لمسافة أربعين قدماً في الاتجاهات المعاكسة.

وعندما نزلت إلى الوسخ المحفور، لم أستطع التصديق أني كنت أنظر إلى بقايا مجنزرة. ترجل لي آلي ووقف إلى جانب سائقي وجانبي. وكان وجه لي ملتوياً بحنق بارد، وكانت عيناه ضيقتين.

وقال، وهو يحدق في مجال انتشار الحطام: "يجب أن يكون ذلك على الأقل بزنة 500 رطل من شديد الانفجار. ويحتمل أن أولاد الحر... الأوغاد زرعوا قنبلة غير متفجرة من قنابل القوات الجوية، وجهزوها بصمامة مع غطاء انفجار."

وسأله سائقي: "من الذي كان يتولى الرمي فيها؟"

وقال لي بهدوء: "الملازم بهر."

كان الملازم الأول ديك بهر واحداً من أكثر قادة الفصائل خبرة في سرية تشارلي. وعندما كنا نقف عند حافة الحفرة، انتشر الجند من المجنزرات التي كانت خلفنا كالمروحة بصمت، وبدؤوا يبحثون عن الموتى. وللحظة كنت متجذراً في المكان، ثم إني أجبرت نفسي على أن أتحرك، حذاء أمام الآخر، وأنا أتحامل على نفسي.

على متن تلك المجنزرة كان هناك خمسة رجال مع ديك بهر. واحد منهم، وهو

السائق، قذف به بوضوح، مات بجسمه في قطعة واحدة، ملتوياً على الطين الجاف على مسافة حوالي عشرين قدماً بعيداً على الجانب الآخر من الحفرة.

أما الجنود الآخرون فقد تفجروا إلى قطع. وتقدمت ببطء مع الجند على طول طرف حافة الطريق نزولاً إلى حثالة خندق الماء. ظهر لنا رأس مقطوع على السطح، والوجه للأسفل. كان شعره مقصوصاً قصة قصيرة مثل مجند مستجد تقريباً أو في التدريب الأساسي.

وهمس جندي: "واحد من الشباب الجدد."

وارتمى ساعد عار من المرفق للأسفل وكان مثبتاً على الضفة الموحلة، قد غطاه الذباب قبل أن نصله. وقال جندي آخر: "في يده خاتم زواج." ووصل إلى المكان وأمسكه بلطف في المعطف الواقي من المطر الذي كان يحمله لجمع أجزاء الجسم.

وأنا تسلقت الضفة ووجدت جزءاً من الساق الأيمن لجندي، وكان القدم ما يزال في الحذاء العسكري الخاص بالغابات المربوط بخيوطه ربطا محكماً بشدة. وفي الأعلى عند الحافة قرب الفوهة، كانت الرائحة المنتنة المنبعثة من المتفجرات عالية الانفجار، واللحم المحترق، والدم قد أصابتني بالدوار. فقطعت الطريق مثل جسد ميت انبعثت فيه الحياة ثانية وساعدت الجند في الخندق الآخر في جمع قطع الأموات.

ليس لدي أدنى فكرة كم لبثنا هناك. قد تكون دقائق. ولكني شعرت أنها أيام. وعندما انتهت، كان معنا ثلاثة معاطف واقية من المطر مشبعة بالرطوبة ومشدودة بحبل مظلي أخضر عبر ثقوب التسليك. أكياس مليئة بكتل من اللحم الثقيل.

وعندما كنا نحمل المعاطف إلى القسم المنحدر من مجنزرة لي، كان جمهور من المدنيين الفيتامين يقف على بعد عشرة أمتار يحملق فينا ووجوههم فارغة من أي معنى.

وأقسم واحد من الجند، وهو يحدق بالفلاحين: "السفلة مصاصو... إنهم قد

رأوا من الذي زرع اللغم. يجب أن نأخذ واحداً من هؤلاء الأوغاد ونقتله. فذلك سيجعلهم يتكلمون."

وراقبت وجوه الفلاحين. هؤلاء الناس كانوا يعرفون من الذي زرع تلك القنبلة. ولكن هل هم الذين زرعوها؟ هل كانت تلك السيدة العجوز التي تلبس صندلاً بلاستيكياً غير منسجم، ففمها مبقع بالأحمر من عصير التنبول؟ أو ذلك الشاب بالساعد المفتول، الذي حفر المجرور كي يستطيع أصدقاؤه أن يزلّقوا الأسطوانة الثقيلة للقنبلة في الحفرة؟ ربما كنا ننظر إلى مفرزة هندسة من الفيتكونغ، ترتدي ملابس مثل الفلاحين. فلو أن واحداً منهم سحب قنبلة يدوية من تحت قميصه الطويل، كان لدينا ما يبرر لنا قتلهم جميعاً.

لا. هؤلاء الفلاحون كانوا خائفين. والفيتكونغ سيطروا على كل هذه القرى. وتذكرت قرية صغيرة في الجانب الآخر من دونغ تام، وفيها قامت طبابة الجيش بتطعيم الأطفال ضد الحصبة. وفي إحدى الليالي جاء الفيتكونغ ودخلوا وقطعوا سواعد أولئك الأطفال، انتقاماً من التعاون مع العدو الاستعماري. الفلاحون في هذا الطريق لم يكونوا هم العدو... كانوا هم الضحايا.

استدرت بعيداً وأغلقت عيني، مكافحاً ألاّ أختنق من الرائحة النتنة ومن بغضائي المريرة. وعندما عدت ونظرت ثانية، كان الفلاحون يمشون مبتعدين.

ستة شهور أخرى في هذه البلاد.

بعد أن فعلنا كل شيء كنا نستطيع أن نفعله عند حفرة العربة م-113، أمرنا المقدم أنتيلا أن نعود إلى بنه بهوك. كان الرجال أكثر ذهولاً، وأكثر امتلاءً بالغضب ضد كل شيء أو أي شخص فيتنامي، من أن يقاتلوا قتالاً فعالاً. وعندما قام رجال تسجيل القبور بنقل الموتى من مجنزرة لي، مشى المقدم أنتيلا على طول صف المجنزرات الواقفة داخل نطاق القاعدة، وكان هادئاً، ومتوازناً، ولكن يفيض بالحزن بشكل واضح. ونظر إلينا جميعاً، ثم نظر إلى مجنزراتنا.

وقال: "هذه العربات تحتاج إلى صيانة، وقد حصلنا قبل قليل على شحنة بطاريات جديدة وقطع غيار للمحركات. وذلك هو واجبكم للأسبوع التالي. سوف تعودون للعمليات، ولكن ليس فوراً."

بعض الضباط، كان يمكن أن يطلب تفسيراً للكارثة، أو أن يسعى إلى تحويل اللوم إلى الموتى أنفسهم. ولكن إيرك أنتيلا واجه المأساة برباطة جأش، وكان مهتماً بجنوده، لا بنفسه.

وقال باللهجة الهادئة نفسها وهو يمشي بهدوء، ويداه مشبكتان خلف ظهره: "أنتم أيها الرجال عملتم عملاً جيداً، وما حدث اليوم لم يكن غلطتكم. وأنا آسف أنكم فقدتم أصدقاءكم. إن القسيس قادم من تان آن، وسنقيم غداً حفلاً تأبينياً في الساعة 800."

درست عيني إيرك أنتيلا. وعرفت أنه كان في قبضة الكرب المبرح، ولكنه لم يسمح له بالظهور. كنا في حرب. وهو قائد الجند في القتال. وثبات عزيمته الهادئ في مواجهة الكارثة منحنا جميعاً القوة. سيحزن في غضون ساعة، وأما الآن فكان يقف كالصخر الصلد. في الحرب، يكون من الضروري للقادة أن يكونوا قادرين على تأخير إظهار عواطفهم إلى أن يكون بمقدورهم أن يفعلوا ذلك.

كان شاطئ بوندي بارداً مشمساً في صباح يوم الخميس ذلك في شهر نيسان/ إبريل، عندما كنت أقف عند النافذة المفتوحة لحمام الفندق، أحدق للأسفل في الماء وهو يتسرب إلى المغسلة. غسلت المرحاض بماء متدفق، ثم غسلته ثانية. هائل. كان هناك حوض بلاستيكي مليء بالثلج وبالعلب الطويلة من بيرة فورستر يقف على طاولة من الخيزران قرب المغسلة. وهذه العلب، على غير شكل علب بيرة بي اكس في فيتنام، كان لها في أعلاها فتاحة جديدة وهي عروة تسحب مفرقعة، إنها معجزة، مثل الماء الحار والبارد الجاري، ومثل شريحة اللحم السمينة التي تناولتها في العشاء في الليلة الماضية، وهو المساء الأول لي في الاستراحة والنقاهة.

نمت في كانتاس بوينغ طوال الطريق من مطار تان سون نهوت في سايغون إلى سنغافورة. بعدئذ فتحت بضع علب صغيرة من بوربون الطائرة ونمت ثانية، ولم أستيقظ إلا عندما علا صوت دواليب النفاثة مصطدمة بمدرج المطار في سيدني.

أعلن سائق التاكسي المتغضن الوجه أنه كان محارباً قديماً في طبرق، وهي المكان الذي قاتل فيه الأستراليون الفيلق الإفريقي لرومل، وسألني إن كان اليانكي "يضربون" العدو في فيتنام. وأكدت له أننا كنا نفعل، وبناء على ذلك قال إن ذلك "بلادي بونزر" وحسبت أن ذلك لابد أن يعني أمراً جيداً.

وصرح السائق أيضاً أن فندقي "سيسبح مع فتيات الشاطئ الشابات." وهن فتيات من الكليات القريبة يمضين واحدة من عطلات نهاية الأسبوع الخريفية الحارة في الشمس. كان محقاً.

أسبوع كامل في أستراليا. سبع ليالٍ وسبعة أيام، كنت سأتذوق كل دقيقة فيها. حمامات ساخنة. بيرة فوستر باردة كالثلج. ثلاث مرات من شرائح اللحم في اليوم. وهؤلاء "الفتيات الشابات."

وانقضى الأسبوع سريعاً جداً.جلست في مطار سيدني، وكنت جاهزاً تقريباً للصعود إلى الطائرة النفاثة وأتوجه عائداً إلى الحرب. لقد كنت قررت أن أستراليا هي أفضل بلاد في العالم. كاملة في كل شيء.كانت الشواطئ نظيفة وبيضاء. وكان الطعام مدهشاً، ورخيصاً بشكل لا يكاد يصدق. حتى إنني تعلمت أن أشرب الخمر الأحمر مُرَّاً مع لحم الخروف المشوي. كان الدولار الأمريكي يساوي تقريباً اثنين إلى واحد في مقابل العملة الاسترالية. عندما أصل إلى التاريخ الذي أستحق فيه العودة من وراء البحار، أستطيع أن آخذ النقود التي وفرت، وأطير راجعاً إلى هنا، وأصير محامياً، أي، مترافعاً أمام المحاكم، كما يسمونه.

تلك كانت خطتي. ولكن كان هناك أمر مهم: يجب علي أن أبلغ الأخبار إلى كاثي. فمسحت الطاولة وفتحت قطعة من القرطاسية الزرقاء والبيضاء بشكل رسالة جوية تُلفُّ فتكون مظروفاً.

وكتبت: "عزيزتي كاثي، هذا ليس سهلاً، ولذلك سأصل مباشرة للنقطة..." وأخبرتها بأنني سأعيش في أستراليا، وأن علينا أن نفسخ الخطوبة. وكنت آسفاً، ولكن الأشياء ستنحل كلها على النحو الأفضل. وطويت الرسالة، وأسقطتها في الصندوق العمودي القرمزي، وفتحت آخر بيرتي الفوستر.

وطبعاً، كان هناك أمر مهم آخر في خطتي الدقيقة الكاملة. كان يجب علي أن أعيش لأنهي بقية نوبتي في فيتنام.

"خمسة صفر." رن الصوت في سماعة أذني اليمنى. "قوس قزح أربعة. قل ثانية إحداثيات هدفك."

كان الرجل الذي يتحدث في سماعة أذني اليسرى هو آيرون هورس سيكس، الحصان الحديدي ستة، وهو واحد من قادة سرايا الكتيبة، وكانت وحدته في تماس كثيف في خط مدخن من البيوت، والمصانع، والمستودعات متجمعة على طول الضفة الجنوبية من قناة كنه دوا. ومع شمس شهر أيار/مايو وهي تنصب من خلال الفقاعة البلاستيكية للطائرة العمودية الصغيرة، وحتى على ارتفاع 200.1 قدم كانت حجرة الطيار الضيقة حارة كالفرن. وكنا إيرك أنتيلا وأنا نركب في هذه الطائرات العمودية نوع اتش-23 رافن (غراب) للقيادة والسيطرة طوال الأيام الثلاثة الأولى من هذا الاشتباك الذي بدا لنا بلا نهاية. في الطائرة العمودية اتش-23، كان الطيار يطير من مركز المقعد الضيق، والقائد إلى يساره، وضابط الارتباط المدفعي إلى اليمين.

لم يكن هناك سعة إرسال لا سلكي كافية لي لأتصل مع سرايا المشاة التي تقوم بالمناورة تحتنا ومع بطاريات المدفعية التي توفر لها المساندة بالنيران. ولذلك ففي مدة الشهرين اللذين كنت أطير فيهما بصفة ضابط ارتباط لكتيبة أنتيلا، طورت نظام اتصالاتي الخاص على طريقة نظام اتصالات روب غولدبيرغ(*). فربطت سلك

(*) رسام أفلام كرتون.

سماعة الأذن اليمنى في الخوذة الخضراء للسدنة الجويين باللاسلكي بي ار سي-25 المسوكة بين ركبتي، والتي كانت مضبوطة مع قناة نيران المدفعية المساندة. وسماعة أذني اليسرى كانت مربوطة بسلك مع قناة اتصال الطائرة العمودية، وهي التي استخدمها المقدم ليتحدث إلى قادة سراياه وقادة فصائله، وميكرفون خوذتي كان مربوطاً بسلك إلى ذبذبة "مناورة" الوحدة الأرضية، وكنت أستخدم الهاتف اليدوي بي ار سي-25 لأصل نار المساندة. وفي المحاولات الأولى لتشغيل هذا النظام المرتجل كنت مثل المقسوم في الوسط، ولكن كان علي أن أتعود عليه.

وكان ذلك شيئاً جيداً تماماً أيضاً. والمعركة التي كانت محتدمة على طول القناة وخلال المناطق الجنوبية من سايغون، كانت أضخم اشتباك منذ هجوم تيت في شهر شباط/ فبراير. وفي الحقيقة، عند الفجر في ذلك الصباح، وقبل أن نصعد إلى الطائرة العمودية، سمعت شخصاً على لاسلكي القوات المسلحة يسمى القتال "تيت الثانية." وكانت خمس كتائب على الأقل من جيش فيتنام الشمالية والفيتكونغ قد تحركت شمالاً خلال حقول الرز واقتحمت مركز حراسة صغير لقوة محلية لجيش فيتنام موجودة على مديد حاملة الجسر واي Y الطويل الخرساني عبر قناة الشحن الواسعة - "جسر واي Y".

وقام المقدم أنتيلا، وهو يتصرف بناء على معلومات الاستخبارات، بنقل الكتيبة وكل مجنزراتها شمالاً في عصر يوم 6 أيار/مايو. وقبل ضوء النهار في الصباح التالي، كانت السرايا مشتبكة بقتال شوارع مع جند عدو حسن التسليح وحسن التدريب. وكان جيش فيتنام الشمالي والفيتكونغ مصممين على أن يعبروا الجسر وأن يقاتلوا ويشقوا طريقهم أربع كيلو مترات شمالاً إلى قلب العاصمة.

في ذلك الصباح الأول، اشتبكت كتيبتنا وحدها مع القوة المعادية المتفوقة على الجانب الجنوبي من القناة. ولكن الفرقة التاسعة زجت المزيد والمزيد من الكتائب في القتال، بينما كان كل ضباط الارتباط وقادتهم في طائرات تدوي فوق الرؤوس يشتغلون بالمساندة بالنيران. في قطاع الكتيبة، طلبت ما يحتمل أن يصل إلى مائة

مهمة رمي وقصف جوي، تدك العدو بين بيوت ومصانع خرسانية مجصصة فاتحة اللون. وكانت هذه المنطقة مقاطعة غنية، وموالية للحكومة، وبنيت بالعون الأمريكي إلى حد كبير، لتكون حالة للعرض تظهر التقدم. وأسفت لتدمير هذا الحي، ولكن العدو كان يستخدم هذه المباني لإطلاق قاذفات ار بي جي والرشاشات والبنادق عديمة الارتداد على جندنا.

ومع حلول اليوم التالي، كنت أوجه النيران من عدد يصل إلى خمس كتائب مدفعية. وكانت القوات الجوية تطير بمساندة لا تتوقف من تان سون نهت المجاورة. وكان المزج بين نيران المدفعية والقنابل زنة 500 رطل يدمر العدو.

يوم 10 أيار/مايو كان اليوم الثالث. وكانت الليلة السابقة هادئة نسبياً، مجرد هاونات وعيار 107 كل ساعة أو ما يقارب لإبقائنا مستيقظين، ولكن تشارلي كانت قد رجعت بقوتها الكاملة عند الفجر. وبحلول الساعة 1040 كانت السرايا تناور وتتحرك جنوباً على طول طريق رئيسي، محاولة أن تحيط الفيتكونغ الذين كانوا قد تخندقوا في الخرائب التي كانت مجمعاً صناعياً.

كنت أعيش على أوعية القهوة، وعلى ما مجموعه تقريباً ثلاث ساعات نوم في الليالي الأربع والأيام الأربعة الماضية.

مركز توجيه نيران البطارية نادى مرة ثانية في سماعة أذني اليمنى: "خمسة صفر، لم ننسخ إحداثيات الهدف، حوّل".

هززت نفسي لأستيقظ ودرست الغطاء البلاستيكي للوحة الخريطة على حضني. "فوكس تروت تانغو أربعة ستة خمسة ثمانية سبعة أربعة، حول."

كنا نحوم فوق الهدف تماماً، وهو آمن مكان، لأن قنابل مدفعيتنا القادمة سوف تسقط ما بعد طائرتنا العمودية على زاوية. وتثبيت الحومان عرّضنا لنيران أرضية متقطعة ولكن ذلك كان أمراً لا نستطيع أن نمنعه.

وعلى أية حال، كان الطيران مع المقدم أنتيلا مثيراً دائماً. فالرجل لا يعرف

الخوف. في وقت متأخر من الأصيل السابق، تعرضنا لطلقة رشاش في القبة البلاستيكية لحجرة الطيار وانحنى أنتيلا للأمام فقط وصاح في هدير تيار هواء: "لا أعرف بالنسبة إليك، ولكن هذا يجعلني عصبياً."

ونادت البطارية: "أطلقت، حوّل." وكانت رشقة من القنابل في طريقها إلى الأهداف تحتنا مباشرة.

أغمضت عيني لمدة ثانية، واندفعت صور من حياتي عبر عقلي مثل حلم حي، متقطع، أسوق متجهاً إلى المكسيك مع إخواني في الأخوة، وصوت الراديو يعلو بغناء المغني الريفي هانك وليامز. كنت أحاول أن ألقي واحدة من نكاتي القاسية المعقدة، ولكن الموسيقى كانت عالية جداً...

وجاء الصوت: "انفجرت، حوّل."

خمس ثوان إلى أن وقع الاصطدام. وأغمضت عيني ثانية. كنت أعمل الآن مع أبي، أفك محركاً من نوع إيفنرود محرك زورق خارجي قديم، أو علبة السرعات لجرار، مربوط إلى الشاحنة، التي كانت بشكل ما جزءاً من مولد كهربائي. إنها قاسية، يا تومي ري...

وفتحت عيني متخازرتين نحو الشمس. قنابل المدفعية من عيار 155ملم انفجرت على مسافة أربعين متراً جنوباً وستين متر شرقاً من الهدف. وناديت: "يساراً خمسة صفر. أضف خمسة صفر، حوّل."

وعندما أقرت البطارية بالاستلام، فإن سماعة أذني اليسرى صرخت بنداء مهتاج من راصد أمامي مع إحدى السرايا: "تماس كثيف." كانوا يتلقون نيران ار بي جي من مستودع بجانب الطريق العام.

انحنيت قريباً من خريطتي ووجدت الإحداثيات. ودققت في لوحتي، فعرفت أقرب بطارية، وكانت قاعدة رمي 105 على مسافة عشرة كيلو مترات بعيداً عن الطريق. "في تماس، مهمة رمي..." وعندما ناديت إحداثيات الهدف أضفت الحروف

الأولى للتخويل من إيرك أنتيلا "إكو ألفا." ومنذ اليوم الأول من القتال، كان قد قال لي أن أستخدم تخويله بدون مشاورته في أي وقت تكون فيه واحدة من الوحدات في تماس. لقد كانوا في تماس مستمر، وقد استخدمت الحروف إكو ألفا بشكل متكرر.

نقص الوقود، فهبطنا في مهبط قرب القناة فبدلنا إلى طائرة أخرى هـ-23. كان معي من الوقت ما يكفي فقط لأتبول وأشرب بعض المزيد من القهوة الباردة.

ومع وقت متأخر من الأصيل كان هجوم العدو قد انكسر، وأسرعت مجنزراتنا نحو الجنوب على الطريق العام تطلق النار على مجموعات صغيرة من الفيتكونغ وجيش فيتنام الشمالية وهي هاربة إلى حقول الرز للمحصول الثاني والتي أغرقت وغمرت بالماء حديثاً.

استيقظت عندما قعقعت طائرة عمودية من نوع هوي من الجيش الأمريكي قيادة فيتنام لتهبط في مركز قيادة الكتبة. لقد كان القتال قد انتهى طوال أربعة أيام. وكان إيرك أنتيلا في الفرقة مع قادة الكتائب الأخرى، يقدم تقريراً عن الاشتباك. وهبط من الطائرة العمودية جنرال بنجمتين وعقيدان وسألوا عن ضابط ارتباط المدفعية 5-60.

زرّرت قميصي وحييت. ولم يصافحني أحد من الضباط الكبار، ولم يبتسموا كذلك، أو يتبادلوا معي المجاملات اللطيفة المعتادة. وأحد العقيدين كان من مكتب المفتش العام، وكان الآخر محامياً من ممثل النيابة العامة في محكمة عسكرية. وقدم لي استمارة مطبوعة ووجهني إلى أن أقسم أن تصريحي الذي أدلي به طوعي، وصحيح، وكامل.

عن أي شيء كل هذا... الزفت؟

بعد نصف ساعة، وفي حين كنا نقود السيارة من بيت منسوف إلى مصنع مدمر، بدأت أحل اللغز.

فقد سأل عقيد المفتش العام، وهو يشير إلى مستودع مدمر بالقرب من القناة: "ما الذي ضرب هذا المبنى؟"

وأجبت: "قنبلة زنة خمسمائة رطل تنزل بمظلة أو من دونها، سيدي."

"وهل أنت الذي أمر بالقصف الجوي؟"

"نعم، سيدي."

وكانت الأسئلة كلها هي نفسها. وأمضينا ساعة نسوق السيارة خلال المنطقة، نستعرض الأهداف التي أمرت بإطلاق مهام رمي عليها، أو قصفات جوية، أو كلا الأمرين. ومع نهاية تلك الساعة أدركت ما الذي كان يجري: هؤلاء الضباط الكبار من أوباش النسق الخلفي، من أولاد... أمهم بوجوههم المتجهمة يبحثون عن شخص ما ليقدموه إلى المحكمة العسكرية بسبب استخدامه القوة المفرطة في حالة قيام بلبلة حول تدمير هذه المنطقة في ضواحي سايغون.

وفي كل مرة وقفنا فيها، كان الجنرال أو أحد العقيدين يسأل: "وأنت متأكد أن الوحدة التي ساندتها كانت في تماس؟"

وبدا لي أنني قد أكون في طريقي إلى الوصول إلى التاريخ الذي أستحق فيه العودة من وراء البحار بأسرع مما توقعت، لابساً الأصفاد.

كنا نتفحص بيتاً محترقاً تماماً قرب مركز القيادة عندما وقف الجيب الموحل الذي يسوقه المقدم أنتيلا. حيا الضابط ومشى متدرجاً معنا ونحن مستمرون في التفتيش وتفقد المباني المدمرة.

وبعد أن سمع إيريك أنتيلا استفسارين من استفسارات الفريق المصوغة صياغة رسمية، خطا ليقف بين الجنرال وبيني. وقال بهدوء، وهو ينظر إلى الرجل في عينيه مباشرة: "سيدي، هذه أسئلة ممتازة. ولكنكم تسألون الشخص الخطأ. إن سجل المهام سوف يبين أن كل مهمة رمي وقصف جوي كانت مرخصة من إكو ألفا، أي إيرك أنتيلا. الملازم فرانكس كان ببساطة يوصل أوامري."

نظر الجنرال بعينين متخازرتين إلى أنتيلا، ثم نظر إلي. وقال أخيراً: "ملازم، انصرف." ثم استدار إلى محامي ممثل النيابة العامة الذي قام بترتيب القسم من المقدم أنتيلا.

على مدار السنين، أعدت تمثيل هذه الدراما في عقلي آلاف المرات. وقد علمت المزيد عن المقدم أنتيلا منذ ذلك الأصيل الحار على طول قناة كنه دوا. لقد وضع على قائمة التقاعد بعد تلك الجولة، وهي جولة قتالية كان هو قد طلبها بالتحديد من مكتب عمله بصفته ضابط أسلحة نووية في أوروبا. لم يكن عليه أن يخاطر بحياته في فيتنام. وبالتأكيد لم يكن عليه أن يخاطر بالإحالة إلى محكمة عسكرية، وطرد غير مشرف من الخدمة، وفقدان تقاعده ليعتني بملازم من الطلاب الضباط المرشحين.

في أثناء شهوري التي قضيتها في القتال، أدركت وفهمت أن الجندي مدين بالولاء لوحدته ولرئيسه. ويجب على القائد أن يكون قادراً على الاعتماد على الدعم الكامل من مرؤوسيه. وعندما كان إيرك أنتيلا يصعد إلى ذلك الجيب وقد تحمل المسؤولية الكاملة عن أعمالي في معركة جسر واي Y، أدركت أن الولاء، مع ذلك، لا ينساب إلى الأعلى في سلسلة القيادة فقط: إنه ينساب نزولاً كذلك.

تقاعد إيرك أنتيلا من الجيش عقيداً، بعد مدة قصيرة من قيادته الشجاعة لواحدة من أفضل الكتائب في فيتنام. لقد أحببته واحترمته إلى أن مات في العام 2003. وكل ما علمني في جسر واي Y يعيش معي حتى هذا اليوم.

في ليلة من رياح المونسون الضبابية في شهر آب/ أغسطس من العام 1968، جلست إلى طاولة خشبية في نادينا البديل في بنه بهوك. أرتشف البوربون وبيرة بلو ريبون.

وطبعت بعناية على ورقة: "كاثي، أكتب هذا الشيء في خدر السكران. إن آخر محنة تبدأ الآن..".

وصفت عملي الجديد، وهو أن أطير بصفة كشاف في طائرة رصد عمودية خفيفة من نوع او اتش-6. كنت أحل بديلاً لضابط قتل في ذلك اليوم، وكنت خائفاً. بقي أقل من ثلاثة أشهر ليحل تاريخ استحقاقي العودة من وراء البحار، وكان عملي الجديد واحداً من أخطر الواجبات في فيتنام.

ومنذ أن عدت إلى رشدي بعد جسر واي Y، كنت قد كتبت إلى كاثي كلما كانت تلوح لي الفرصة. ورغبت أن نعيد الخطوبة. وإذا عشت بعد هذا، فإني أرغب بالزواج منها. وكانت أوهامي الأسترالية أملاً كاذباً كخيالات مدخن الغليون(*) من ملازم شاب أناني يحاول أن يعتصر كل آخر ثانية من الحياة له من أسبوعه الأول بعيداً عن القتال. ولكن كاثي لم تقطع لي هدوءاً. هل كنت أستطيع لومها؟ ربما لا.

شربت ويسكي وبيرة وتابعت الطباعة. "كاثي، افعلي ما تشائين. ولكن أرجو أن تصلي من أجلي. هذا أسوأ من أي شيء سبق لي أن عملته هنا... أرجو أن تكتبي لي عندما تستطيعين. أحبك بكل كياني."

ولعقت المظروف، ولساني ما يزال لزجاً من الإسراف في الشراب، ثم ترنحت في مشيتي عائداً إلى كوخي لأحزم تجهيزاتي من أجل طائرة الصباح العمودية.

تايغر ثلاثة- خمسة كانت هي طائرة البارون الأحمر العمودية، وهي طائرة عمودية خفيفة للرصد من نوع او اتش-6 خضراء مجردة إلا من الأساسيات كنا نطير على متنها بصفتنا العنصر المنخفض في "الفريق الزهري"، وهو مجموعة من ثلاث طائرات ضمت طائرة من نوع او اتش-6 تطير قريبة من الأرض، وطائرتي هجوم تطيران على ارتفاع أعلى. كلمة منخفض كانت الكلمة التشغيلية. وفي الوقت الذي تحلق فيها طائرتان مسلحتان من نوع هوي أو ايه اتش-1 كوبرا تحومان فوق الرؤوس، سيقوم البارون الأحمر بفتل شاربه، المقود الأحمر الشمعي ويبتسم مكشراً مثل القرصان.

"دعنا ننزل ونقطع بعض العشب، يا توم."

كان الاندفاع السريع تحت مستوى قمم الأشجار بسرعة تسعين عقدة طريقة مثيرة للاهتمام لرؤية فيتنام. وكانت نظرية البارون هي أننا كنا هدفاً صغيراً وسريعاً إلى درجة لا يستطيع معها تشارلي أن يصيبنا، وعندما يحاول كنا نستطيع

(*) إشارة إلى خيالات مدخن الأفيون في الغليون.

عادة أن نحدد طلقاته الخطاطة، وهذا يسمح للطائرات العمودية المسلحة أن تقتله أو أن تثبته في مكانه ريثما أقوم أنا باستدعاء نيران المدفعية.

وطوال ستة أسابيع من التماس اليومي تقريباً، عمل أسلوب البارون بطريقة جيدة. ولكننا استنفدنا الحظ في وقت متأخر من أصيل أحد الأيام بين غابة من الشجر القصير الكثيف وحفر القنابل بعيداً بالقرب من كمبوديا. كنا نقوم بدورية على طول صف من الأشجار عندما ضرب شيء ثقيل في يمين الطائرة العمودية خلف رؤوسنا تماماً. وأومض كل ضوء أحمر للإنذار في لوحة طائرة الرصد الخفيفة، وأصدرت سماعات آذاننا أصوات الإنذار. وسحب البارون وغيَّر الاتجاه للخلف في الدوران، ولكننا غطسنا لليسار.

واستدعى المدافع المحلقة فوق رؤوسنا وصوته هادئ هدوءاً يصعب تصديقه: "تايغر أربعة، هذا البارون، لا أستطيع السيطرة على الطائرة. إننا نقترب من النزول."

واصطدمنا بالطائرة بقمة خندق موحل من حقول الرز على زاوية وارتددنا ووثبنا بها مرة، والزلاقتان تصكان بصوت صاخّ ممزّق شديد. وانتهت الطائرة العمودية الصغيرة مستقرة قائمة، ولكنها مائلة إلى اليسار. أنا أصيبت كتفي وخدي برضوض عندما اصطدمت ضد إطار الباب، ولكني فيما عدا ذلك لم أكن مصاباً. وعندما ضربت الأحزمة السريعة الفتح بيدي اليمنى، وصلت إلى تحت مقعدي من أجل تناول بندقيتي سي ايه ار-15. كانت طلقات ايه كي-47 تفرقع في الطين من حولنا.

وصاح البارون: "أخرج، يا زفت000، خارج الطائرة."

كان معي سلاحي، وحمالة جراب الذخيرة، وحقيبة خوذة مليئة بقنابل يدوية متشظية من نوع ام-26. مشيت متثاقلاً نحو حفرة كبيرة من قنبلة، ونظرت إلى الخلف فرأيت البارون يعرج خلفي. لقد تهشمت رجله اليسرى على دواسات السيطرة عندما أُصبنا.

وعندما غطسنا في الحفرة،لم تكن الخوذة مع أي منا. وأنا تركت جهاز الإرسال اللاسلكي في الطائرة المحطمة. انقطع نفسي من السرعة، وشعرت أن فمي كورق الرمل، ورق الصنفرة، وكان البارون يتلوى من الألم. وعندما اختلست النظر فوق حافة الحفرة رأيت عدداً من الفيتكونغ بملابسهم السوداء ومعداتهم يركضون نحونا من بين الأشجار التي تبعد مسافة مائتي متر عنا.

كنت مازلت ألهث، وضربت محول اختيار نوع الرمي في بندقيتي سي ايه ار-15 لأضعه على وضع الرمي الآلي وأطلقت صلية طويلة. وسقط الفيتكونغ مثل الأكياس.

وظهرت الطائرات العمودية المسلحة من مغرب الشمس، وكانت ترمي برشاشاتها الصغيرة وتطلق رشقات من أربعة صواريخ.

وحالما مرت الطائرات من فوق الرؤوس أطلق المزيد من الفيتكونغ النار من بين الأشجار الواقعة خلفنا. كان البارون الآن جاهزاً، ويطلق من بندقية سي ايه ار-15. أنا حرست الجبهة اليمنى وهو غطى المؤخرة اليسرى. وفي خمس دقائق، استنفدنا بالرمي نصف ذخيرتنا. ولكن الفيتكونغ مازالوا يناورون ويتحركون نحونا، مستخدمين خنادق حقول الرز غطاء لهم. ومع نزول الشمس كثيراً،لم تبق الطائرات العمودية قادرة على رؤية العدو في الظلال الطويلة. ولكنهم، وفي كل مرة كنا نرفع فيها رأسينا، كانوا يطلقون النار. ثم نطلق نحن. ثم يطلقون هم ثانية.

وسألت البارون: "كم بقي من ذخيرتك؟"

"ثلاثة مخازن، وأنت؟"

وعصرت حمالة جراب الذخيرة الأخضر القطني: "بقي اثنان."

كان البعوض يرتفع في تجمعات كالغيوم الآن في هدأة القتال بين نيران الفيتكونغ، وهي علامة مؤكدة على هبوط الليل. وعندما كانت قمة الحفرة تفرقع بطلقات العدو، كنا نجلس القرفصاء ونصلي وندعو أن تستطيع الطائرات من فوقنا أن تقوم بمرور آخر وتكون محظوظة. ولكن بدون جهاز الإرسال اللاسلكي ليس لدينا طريقة لتوجيههم نحو العدو، الذي صار الآن على بعد أقل من ثلاثين متراً عنا.

وقلت وأنا أسحب مسمار قنبلة يدوية: "وقت القنابل المتشظية."

وأجاب البارون: "تسلمت ذلك."

ومر وقت طويل. وكان ما تبقى لدي أقل من مخزن واحد سعة 20 طلقة للبندقية سي ايه ار-15، وأربع قنابل يدوية.

وربت على مسدسي الآلي عيار 0.45. ذلك سيفعل الكثير من الخير.

استلقيت بظهري على الطين، وحدقت للأعلى في السماء. ثلاثة أسابيع بقيت لوصول تاريخ استحقاقي للعودة من وراء البحار، وكان هذا نهاية الجبهة. والفيتكونغ الذين يزحفون نحونا تحت جنح الظلام لديهم قنابلهم اليدوية الخاصة بهم. كم بقي قبل أن تسقط بضعة منها على حفرتنا؟

سوف يأخذوننا أسرى إذا نفدت ذخيرتنا. وقد سمعت ما يكفي من القصص عما كان يفعله الفيتكونغ بملاحي الطائرات العمودية الذين أسروهم. وأخرجت مسدسي عيار 0.45 من قرابه ووضعت طلقة في حجرة النار.

لن أموت أسيراً.

هذه كانت نهاية توم فرانكس. لا كاثي، ولا درجة جامعية. وبالتأكيد ليس من سعادة بعد ذلك.

وتمتمت: "ابن الكـ..".

وفجأة زنّت طائرة او اتش-6 نازلة لتحلق تحليق حومان بجانب الحفرة بينما الطائرات العمودية المسلحة التي عبرت أمامنا ووراءنا، كانت تضرب الخنادق. أمسك البارون الزلاقة اليمنى للطائرة العمودية المحوّمة وشد نفسه إلى الداخل. وأنا اندفعت إلى الجانب الأيسر. وابتعدت حقول الرز المظلمة والطين الأفتح لوناً في حفر القنابل.

وعندما صعدنا، اتجه الطيار إلى الشرق تماماً، بعيداً عن العدو، وبعيداً عن غروب الشمس البرتقالي فوق كمبوديا.